رواية
زائر الليل
معاذ الحمري
الكنزي
ساحر الكتب

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولي يناير 2026

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

الكتاب: زائر الليل
تأليف: معاذ الحمري
تدقيق لغوي : حاتم الدسو قي
التنسيق الداخلي : أحمد عبد الحليم
المقاس 14 × 20
رقم الإيداع : 2025 / 37048
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 8792 - 37 - 9

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر عن وجهة نظر الدار...

جميع الحقوق محفوظة ولا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر

فخ المنزل المهجور

في آخر النهار، كانت مجموعة من جنود الاحتلال الإيطالي تجوب المكان بحثًا عن أي مجاهد ليقتلوه. مرّوا بحيّ شبه مهجور، بيوتُه قليلة ومتباعدة.

لفت انتباههم منزل موارب الباب، وعلى العتبة خوذة جندي إيطالي ملطخة بالدماء، يعلوها غبار كثيف. توقف أصغرهم وانحنى نحو الخوذة كأنه يصغي إلى قصتها، ثم خطا باتجاه الداخل، فقطع القائد سكون اللحظة:

- توقف. قد يكون فخًا. لا شيء يحدث هنا مصادفة. كونوا مستعدين لأي مفاجأة.

امتثل الجندي للأمر على مضض، ثم همس لرفيقه وهما يتحركان:

- اسمع... هذه الخوذة ليست مجرد حديد إنها رمز لقواتنا، وربما كان صاحبها مقتولًا، أو هناك مصاب في الداخل ينتظر النجدة. بعد دقائق، استأذن لقضاء حاجتك واذهب إلى المنزل.

- ولماذا لا تذهب أنت؟

- إن طلبتُ ذلك الآن سيشك القائد، ثم إنك أكبر سنًا، ولن يظن أنك تخدعه، سألحق بك بعد لحظات بحجة تأمين ظهرك.

- حسنًا، لكني لن أدخل قبل أن تأتي.

- اتفقنا. وجهّز بندقيتك لأي طارئ.

وبالفعل قال الجندي لقائده:

- سيدي، أستأذن لأقضي حاجتي سريعًا.

- حسنًا. لديك دقيقتان.

وبعد قليل قال الثاني:

- سيدي، أستأذن للحاق به لتأمينه.

- نعم. تحرك خلفه على بُعد ثلاث خطوات، وإن لاحظت شيئًا مريبًا فعذ فورًا.

وقف الاثنان أمام الباب. انحنى الجندي الأصغر، تناول الخوذة ونفض عنها التراب، ثم دخل بحذر. كان المكان فوضى كما توقعا: جدران مثقوبة بالرصاص، وغرف مهدّمة كأنها شهدت اشتباكًا.

وفجأة خرج من إحدى الغرف صوت خافت متقطع بالإيطالية:

- النجدة... النجدة...

رفع الجندي الأصغر بندقيته نحو الباب، فزجره رفيقه:

- لا تفكر في إطلاق النار...

رد عليه بحزم:

- أشعر أن هناك من يحتاجنا.

أجابه رفيقه متشككًا:

- وقد يكون فخًا.

فرد عليه:

- صحيح... لكنه يحتمل الوجهين. لم آتِ إلى هنا إلا على أمل أن أنقذ أحد رفاقنا. ابتعد قليلًا، سأدفع الباب بقدمي، وكن مستعدًا لأي عدو.

تقدم الجندي نحو باب الغرفة المهترئ، رافعًا بندقيته بحذر، وابتعد رفيقه إلى ناحية باب المنزل ليراقب الطريق، لكن المسافة ضيّقت زاوية رؤيته إلى الداخل، وقد زادها سوءًا صمت المكان وظلاله وركام الأثاث.

دفع الجندي الباب المتهالك بقدمه، فانقلب إلى الداخل بصرير مزعج، واندفع غبار كثيف فحجب عينيه، وفي اللحظة نفسها سقطت ألواح خشب متكسرة من أعلى الفتحة، فكوّنت حاجزًا بينه وبين رفيقه.

وسط ذلك الظلام والارتباك، برزت هيئة من خلف أنقاض منخفضة عند جانب الغرفة، كان شابًا قوي البنية. مدّ يده وأمسك بالجندي قبل أن يلتقط أنفاسه، وحاول الجندي إطلاق النار، لكن الطلقات في المكان الضيق لم تزد إلا فوضى، وقد أحكم الرجل قبضته من الخلف وطرحه أرضًا بعنف، فسقطت البندقية بعيدًا.

في الخارج تجمدت أطراف رفيقه، وتلاحقت أنفاسه، وارتجفت يداه، واختنق صوته في حلقه. تردد بين أن يركض لطلب الدعم فيتأخر، أو أن يقترب لرفع العائق فيقع في المصيدة نفسها... ثم حسم أمره وتقدم.

شق طريقه بين الألواح، وفي يده مسدس يضغطه إلى صدره. كانت الأخشاب تتكسّر تحت قدميه، وتتصاعد منها رائحة غبار

قديم. ومع كل لوح يزيحه كان الضوء داخل الغرفة يزداد، حتى انكشف المشهد دفعة واحدة...

جثة على الأرض، مسوّدة ومثقبة بالرصاص، يغطيها الدم اليابس، وحشرات تزحف حولها. ترنّح الجندي وسقط من هول ما رأى، ثم تماسك سريعًا حين أدرك أن الجثة ليست جديدة... وأن رفيقه لم يعد هنا.

ارتفعت دقات قلبه كطبول حرب، وسمع أقدامًا تركض من الخلف، فالتفت بسرعة فرأى قائده وبقية الجنود يندفعون إلى الداخل، بوجوه مشدودة وعيون تفتش عن تفسير لما جرى.

قال الجندي بصوت مرتجف:

- سيدي... سأخبرك بما حدث.

فتلقى صفعة مؤلمة من قائده أطاحت به أرضًا، ثم قال القائد مشيرًا إلى الجثة الملقاة:

- أين رفيقك؟ وما الذي حدث هنا؟

ابتلع الجندي ريقه ونهض متماسكًا، ثم قال متلعثمًا:

- هذا... ليس رفيقي. دخلنا الغرفة بعد أن سمعنا الاستغاثة، فسقطت ألواح الخشب وحجبت الرؤية، ثم ظهر رجل من الظلام وخطفه أمامي... لم أتمكن من الوصول إليه.

اندفع بعض الجنود نحو الفتحة في الجدار، فرفع القائد سلاحه وأطلق رصاصة حادة أوقفتهم في مكانهم، ثم صاح:

- سنعود أدراجنا. رفيقكم في عداد الأموات، ولا يمكنني المجازفة بكم، خصوصًا أن الشمس على وشك المغيب. هؤلاء المتمردون بارعون في الحيل، وأظنهم يتوقعون منا الاندفاع خلفه.

ثم أشار إلى الجثة وقال:

- احملوا هذه الجثة لندفنها، وفتشوا ملابسها عن هوية صاحبها. أريد أن أعرف من هو.

عاد الجنود من حيث جاؤوا، والخيبة تثقل خطواتهم بسبب قرار قائدهم بترك زميلهم. وبعد أن ابتعدوا مسافة، قطع القائد همسهم وقال:

- ثقوا بأنني لن أترك جنديًا تحت إمرتي... لكن في الأوقات الحرجة على القادة أن يتريثوا ويكونوا حكماء. لن نكون لقمة سهلة لأولئك المتمردين. ثقوا بقائدكم غالو.

***

ظلال زائر الليل

عام 1930، ومع ازدياد الضغط التمويني وتدفّق الدعم المسلّح لقوات الاحتلال الإيطالي، بدأ الجنرال رودولفو غراتسياني تنفيذ مخططه بتوجيه من الحاكم العام بييترو بادوليو لتفريغ الجبل الأخضر من سكانه. وأُعلن إنشاء معتقلات لأهالي برقة شرق ليبيا، لقطع الصلة بين الناس والمجاهدين وكسرهم قبل مطاردة المقاتلين.

لكن الرد جاء من عمر المختار ومن معه من ثلة صابرة، يقودون مجموعات متفرقة بين مرتفعات الجبل الأخضر، تدافع عن أرضها ببسالة، وشعارها: (لن نستسلم... ننتصر أو نموت).

في تلك الأيام كانت فرقة من المجاهدين تعسكر في أعالي إحدى القمم، تطارد العدو بين الصخور والضباب. غير أن شيئًا مقلقًا بدأ يحدث؛ ففي كل فجر كانوا يعثرون على جثة أحد المقاتلين ملقاة داخل فجوات الجبل، ولا أثر سوى احمرار على العنق يدل على خنقٍ بيد قاتل مجهول.

ساد التعجب بين الرجال؛ فالعدو بعيد، ولا علامة على تسلل. ثم تسللت الهمسات بأن الجبل مسكون، وترددت على الألسنة أسطورة قديمة شاعت في شمال إفريقيا: "عمتي الغولة". عندها قرر أحمد، فتى الاستطلاع الهادئ وأصغر المقاتلين سنًّا، أن يتولى البحث في الأمر بنفسه.

كان أحمد يعبث بالنار، والأفكار تتصارع في رأسه، حتى وضع فرج رفيق دربه يده على كتفه وقال:

- فيم تفكر؟

- اختلطت الأمور عليّ يا صديقي. لا أدري: أفكر بأهلي المشردين؟ أم بالمحتل الذي يجهز قواته لسحقنا؟ أم بهذه الكارثة التي حلت على الجبل؟ أشعر أن الأفكار تثقل رأسي.

- اهدأ يا رفيق، ودع الأمر لقادتنا. هم في اجتماع مع سيدي عمر لبحث ما يحدث.

- وهذه هي المشكلة يا فرج. نحن اليافعون، لا هم. نحن مَن يجب أن يكون الشعلة لحل التعقيدات، لا أن نزيد على كبارنا حِملًا فوق حملهم. يخططون ويفكرون ويبحثون... ثم نضيف لهم مشكلة كهذه؟ لا. سأتكفل أنا بالأمر. سأربط الخيوط وأجد القاتل قريبًا.

- يا أحمد... أنت تحمل نفسك همًا كبيرًا.

- بالله عليك... حتى الآن أربعة من رفاقنا وُجدوا جثثًا داخل كهوف الجبل. وهذه الجبال نفسها نتخذها مخبأ من العدو. هذا يعني أحد أمرين: إما أن العدو اخترق صفوفنا وذلك كارثة، وإما...

- لا تقل إنك تصدق قصة الغولة!

- والله أهون عليّ أن أصدق خرافة من أن تكون صفوفنا مخترقة. هذه مصيبة.

سكت فرج لحظة، ثم قال وهو يحاول أن يخفف عنه:

- تعلم يا أحمد؟ البطل الذي خطف جنديًا من جنود المحتل من بينهم لن تعجزه هذه القضية. سأتركك الآن حتى تصفي ذهنك. اجعل

هدفك واحدًا: اكتشاف السر والثأر لشهدائنا... من مهشّم الأعناق.

مضى فرج بعدما زرع في قلب أحمد شيئًا من الطمأنينة بكلماته. أخذ أحمد نفسًا عميقًا وهو يتذكر آخر ضحايا الكهوف: عبد المطلب. كانت الدماء قد غطت جسده، وهذا ما زاد حيرة أحمد؛ فوجود الدم دليل على مقاومة سبقت الخنق.

هز أحمد رأسه كمن ينفض عنه الخواطر، ثم نهض مدركًا قيمة الوقت، ووجّه بصره نحو فم الكهف الذي عثروا فيه على جثة عبد المطلب في اليوم السابق. دخل وحده، ثم حدّث نفسه:

- ماذا الآن؟ عمّ أبحث؟ هيا يا عبقري زمانك... أعطنا دليلًا واحدًا.

حرّك مصباحه يمنة ويسرة، وتوغل في عمق الكهف حيث يختفي أثر الإنسان عن العين في الخارج. ظل يفتش حتى أمال الضوء نحو صخرة، فلمح آثار دماء قليلة على سطحها، قطع خيط أفكاره صوت من خلفه:

- ماذا تفعل؟

التفت أحمد فرأى أحد المقاتلين، حسن، خلفه. قال أحمد:

- اقترب يا حسن.

- ماذا هناك؟

- انظر إلى آثار الدماء هذه.

قال حسن وهو يحدق في الصخرة:

- بالتأكيد هي دماء عبد المطلب، رحمه الله، تناثرت حين قاوم

قاتله. وكما رأيت، قبل أن يُخنق حتى الموت كان قد ضُرب حتى أدميت جراحه.

- نعم... لكن هذا ليس مقصدي. ركّز جيدًا: هناك نقاط واعوجاج... كأن الدم لم يتناثر، بل كُتب.

- ماذا؟ لا أرى ذلك. تبدو خربشة عشوائية.

- فلنضع احتمالًا واحدًا: ربما حاول عبد المطلب كتابة كلمة مهمة، ثم جاء القاتل ومسحها. ربما كان يريد أن يخبرنا باسم القاتل.

- لا أشاركك هذا التفكير. ثم كيف سيجد من يُخنق حتى الموت وقتًا للكتابة؟

- لا تحتاج إلا إلى إصبع مغموس بالدم. ربما حاول... وحين انتبه له القاتل مسح الحروف، فلم يبق إلا هذا الأثر.

- كل شيء وارد.

- لا أجزم... لكني أشعر أنه أراد أن يقول شيئًا. ربما اسمًا، أو كلمة مهمة. لا تشغل بالك، سأتابع الأمر بنفسي.

تنحنح حسن قائلًا:

- أعلم أني جديد بينكم، لكن عليك أن تعلم أني ذو فائدة. اسأل القائد مفتاحًا عن خبرتي في المعارك.

نظر أحمد إليه لحظة، ثم خفف نبرته:

- الأمر ليس هكذا يا حسن... فقط لا تُتعب نفسك.

***

شجرة الاتهام

تمسّك أحمد بطرف خيطٍ واحد، يسير به مؤمّلًا خيرًا، ويرسم حكاية قد تكون في خياله وحده. كان يحتاج إلى مَن يشاركه ما في صدره بثقة، ولم يجد أقرب من فرج، رفيق دربه.

لكن الصرخات علت فجأة: الشيخ عمر المختار ورفاقه أوقعوا مجموعة من الإيطاليين في فخ محكم. عمت الفرحة المكان، واندفع المقاتلون نحو ساحة الاشتباك ليشاركوا إخوانهم؛ فمعارك الجبال ليلًا كانت لهم امتحانًا لا يملّونه.

حينها لم يبق في الموقع إلا القليل... وكان أحمد بينهم.

كانت تلك أول مرة يقرر فيها أحمد ألا يشارك. لم يكن جبنًا، بل رغبة في أن يثبت شيئًا يطرق رأسه بإلحاح. أخذ يتحرك بهدوء، يراقب الستة الذين بقوا على الجبل، ولا تغفل عيناه عن فم الكهف. الستة هم: عبد الرزاق، وعوض، وسليمان، وسعد، ورمضان، والهادي.

لمح أحمد رمضان يدخل الكهف. عندها حسم أمره: سيراقب. جلس بين الشجيرات يثبت نظره على الفتحة، حتى انقضت خمس عشرة دقيقة وخرج رمضان وعاد إلى موقعه كأن شيئًا لم يكن. في تلك اللحظة اتجه أحمد إلى الكهف، فتأكد أن شكه كان في محله: آثار الدماء المتجلطة التي لمحها أمس على الصخرة... مُسحت.

اشتد الشك في صدره حتى خُيّل إليه أنه عرف الفاعل.

جلس أحمد ساكنًا ينتظر عودة البقية، وبين لحظة وأخرى قفزت إلى ذاكرته حادثة قديمة... منذ بضعة أسابيع:

تجهز أحمد وفرج ومعهما خمسة آخرون، وكان رمضان بينهم. بلغهم أن مجموعة من جنود المحتل تاهت عن رتلها، فطلب القائد من أحمد ومن معه أن يهاجموهم بغتة. توقعوا خط سير الجنود وتوزعوا في مواقعهم.

كانت الخطة بسيطة: يختبئون خلف صخور الجبل، ثم يفتحون رماية كثيفة لثوانٍ معدودة، وبعدها ينسحبون إلى عمق الجبل قبل أن ينتشر الصوت وتصل النجدة.

سار الجنود في طريق خالٍ، بينما كان السبعة مختبئين، كلٌ خلف صخرة. حبسوا أنفاسهم حتى أطلق فرج الرصاصة الأولى، ثم توالت طلقات البقية. سقط أول جندي، ثم لحقه اثنان في ثوانٍ متقاربة. اندفع بقية الجنود للرد، فتفرقوا وتحولت الطريق إلى فوضى: مجاهدون يرمون من علٍ يعرفون تضاريسه، وجنود يردون بخبرة اعتادت أن تقاوم المفاجآت.

ورغم عنصر المباغتة، ظهر فارق التجربة. ثبت جنود المحتل رمايتهم سريعًا وأطلقوا بلا تردد. شعر أحمد أن اللحظة التي كان يجب أن تنتهي بدأت تطول، وأن من حولهم قد سمعهم لا محالة. وإن جاء الدعم، فلن يكون في الأمر خير.

أشار أحمد بيده إشارة الانسحاب. بدأ الرجال يتراجعون راكضين بين الصخور إلى أعلى الجبال. كانوا قد أوقعوا قتلى وجرحى وأربكوا الدورية، وهذا هو المطلوب... لكن الرصاص لا يختار الوقت المناسب.

وأثناء التراجع دوّى طلق حاد، ثم شمعت صرخة مصاب.

كان عبد السلام يترنح ثم هوى على جانبه، يضغط بكفه على فخذه حيث اندفعت الدماء ساخنة. حاول النهوض، فخانته ساقه. عندها صاح أحمد:

- احموا ظهري!

تقدم فرج بلا تردد، ومعه البقية يفتحون رماية سريعة ليكسروا تقدم الجنود ويصنعوا ستارًا من النار. أما رمضان... فكان قد اختفى منذ لحظة التراجع.

استطاعوا سحب عبد السلام، لكن الدم سبقهم. انتفضت روحه بعد قليل، وانتقل إلى رحمة الله شهيدًا بإذن الله.

بلغوا القائد بشأن اختفاء رمضان، فبرر وأقسم:

- أقسم بالله العظيم، حين أعطى أحمد إشارة الانسحاب ركضت دون أن أنظر. خشيت أن ألتفت فألتقط رصاصة. نعم أخطأت... لكن لقلة مشاركاتي في المعارك فقط.

مرت الأيام، واستعاد رمضان ثقة معظم الرجال... إلا قلة كان أحمد في مقدمتهم.

عاد أحمد إلى الحاضر على ضوضاء المجاهدين العائدين، بين فرحة نصر ودموع حزن على من فقدوا. وبعد أن اطمأن أحمد إلى أحوال رفاقه، أخذ فرج جانبًا وأخبره بما رآه: دخول رمضان إلى الكهف، ثم زوال آثار الدم.

قال فرج متحفظًا:

- لكن احتمال أن يكون رمضان هو القاتل لا يزال ضعيفًا... ما دافعه؟

قال أحمد:

- ربما اشتراه المحتل بالمال. أو ربما حمل في قلبه حقدًا منذ حادثة الانسحاب: التوبيخ ونظرات الرجال. إن كان انسحب عمدًا فهو خائن، وإن كان انسحب كما قال ثم أُهين... فقد يدفعه ذلك لشيء أسوأ.

هز فرج رأسه وقال:

- مرت أسابيع على تلك الحادثة. معظم الرجال نسوها وصدقوه. ثم إنه بعد ذلك فعل مواقف طيبة... لماذا أناقشك؟ أنت عنيد يا صاحبي. حسنًا... ماذا تنوي الآن؟

قال أحمد:

- أريد أن أجازف.

- ماذا تقصد؟

- ذلك السفاح قتل أربعة حتى الآن. لا أستطيع الوقوف ساكنًا. أريد أن أتأكد: هل رمضان هو القاتل أم لا... ولدي خيط صغير.

- لا يمكننا التحرك وحدنا. نخبر القادة، وهم يتصرفون.

- إن أخبرناهم بلا دليل، فلن يحدث شيء. وإن كان رمضان هو القاتل، فسيتوقف... ويُدفن السر.

- وما الحل؟

- نختطفه ونضغط عليه. إن كان هو القاتل فسيعترف، وإن لم يكن... فسيفهم فعلتنا.

- حتى لو كان قاتلًا، قد لا تنجح خطتك. رمضان يعلم أننا لن نؤذيه، ونحن غير متيقنين.

- لذلك نحتاج خوفًا لا أذى. تلاعب بسيط يغيّر حساباته. نفّذ ما أقول.

اتفقا على خطة سهلة: يسحبان الرجل بعيدًا عن الموقع، بين الأشجار حيث لا يسمع أحد صراخه. تحرك فرج أولًا، واقترب من رمضان وهو يتحدث مع الرجال عند النار، وقال بنبرة ممزوجة بالمزاح:

- اعذروني يا رفاق... سأختطف منكم رمضان قليلًا. جمعت حطبًا وأحتاج مَن يعينني على حمله، ولا أحد أصلح من رفيقنا الضخم.

اقتنع رمضان ونهض، ولحق بفرج دون أن يدرك ما يُدبّر له.

سارا في ممر ضيق بين الشجيرات حتى وصلا إلى موضع تكثر فيه الأشجار. توقف فرج فجأة وقال بصوت مرتفع:

- نسيت أين وضعت الحطب!

كانت إشارته. خرج أحمد من خلف شجرة، وتقدم سريعًا. أمسك بذراع رمضان، ثم أمسك فرج به من الخلف ودفعه نحو الأرض ليُنهكه.

نهض رمضان مذهولًا، فدفعه أحمد نحو جذع شجرة، وربطاه بحبل قوي حتى التصق بها واقفًا لا يستطيع أن يخطو. كمّما فمه بقطعة قماش، وأحكما العقد.

في الظلام، اتسعت عيناه بخوف ودهشة. قال أحمد ببرود:

- لا تتحرك... ولا تحاول الصراخ. نريد جوابًا فقط.

نزع أحمد القماش عن فمه، فقال رمضان وهو يلهث:

- ما الذي تفعلانه؟ الله المستعان... فكًا وثاقي فورًا.

- أنت جاسوس للمحتل يا رمضان.

- ما الذي تقوله؟

- رأيتك تدخل الكهف وتمسح أثر الدماء.

- أي أثر؟

- أنت تعرفه... آثار الدم على الصخرة.

- أقسم بالله لا أفهم منك شيئًا.

- بائع الدين لا يُصدق قسمه. لدي دليل يفضحك... لكن لأننا تقاسمنا ساحات القتال، سأمنحك فرصة لتفسر.

ارتجف صوت رمضان، ثم قال بغضب مكتوم:

- تتفوه بأوهام. تشك في بسبب تلك المعركة، أليس كذلك؟ أقسمت أمام الله أني لم أنتبه، وقلت ما عندي. أنت فقط قررت في داخلك أني لست أهلًا للثقة.

قال أحمد وهو يثبت نظره فيه:

- ليس وقت جدال. ستبقى هنا حتى الغد. لن يعلم أحد بمكانك. فكر جيدًا... وإن التهمتك حيوانات الغابة فلن أحزن على خائن.

في منتصف الليل، وتحت نور القمر، بقي رمضان مربوطًا إلى الشجرة. كان الليل يبتلع صوته. ولم يكن بين يدي أحمد وفرج دليل ملموس... كانت محاولة لإخافته لا أكثر.

اتفقا أن يعود أحدهما ليستريح في الخيمة، بينما يختبئ الآخر بين الأشجار ليراقب رمضان خشية عليه من حيوانات الغابة. أرادا أن يضغطا عليه... لعلّه يعترف.

تركاه مربوطًا وسط الأشجار. عاد أحمد يصعد الجبل بخطى بطيئة، فيما اختبأ فرج بين الشجيرات يراقب، على أن يتبادلا الدور بعد ساعتين.

دخل أحمد الخيمة، وخفض ضوء مصباح الغاز، ثم تمدد فوق التراب البارد. أغمض عينيه، ثم غط في نوم عميق...

رأى حينها ظلًا ينسل إلى داخل فم أحد الكهوف، قفز أحمد من مكانه، وبهدوء على أطراف أصابعه بعد أن طرد النوم، وتحرك نحو الكهف. كان يقترب والعرق يتساقط منه كلما تقدم خطوة، ونبضات قلبه تتسارع، كلما تقدم خفت نور القمر واكتسى المكان بظلام الكهف، حاول أحمد أن يدقق النظر ليرى من بداخل الكهف، لكنه لم يلمح شيئًا فنادى بأعلى صوته:

- من هُنا؟

ثم أعاد سؤاله فلم يُجب أحد، وضعه يده داخل ثيابه ليخرج عود ثـقاب ويشعله، وفي تلك الـلحظة انقلب الظلام إلى نورٍ خافت، ليس من عود الثقاب، وإنما من مصباح غاز موضوع على الأرض داخل الكهف، اشتعل وحده، بلا يد، بلا صوت، شعلة ثابتة لا تهتز.

الأمور تزداد رعبًا عندما اتضحت جملة تغطي جدار الـكهف متصلبة من الدماء: "هُنـا يبدأ الحساب، وكل من يلاحقني سألاحق روحه".

حدث أحمد نفسه:

- ماذا؟ من كتب هذه الكلمات؟

صوت من خلفه يجيب:

- لم أكتبها، أنا فقط جئت لأقرأها معك.

خفت لون أحمد عندما التفت بسرعة ليرى المُتحدث، كـان عبد المطلب واقفًا شاحب الملامح، مُبيض الـبشرة، وكأن الدمـاء جفت من جسده، التجاعيد في كل مكان بجسده، أكمل عبد المطلب كلامه:

- وقـعت في الـفخ يا أحمد.

- أي فـخ؟ ما الذي يحدث؟

- الـغولة أتت لتحصد أرواحكم.

- ولماذا؟

شعر أحمد بحركة هواء خلف رقبته، كأن أحدًا يقف ملاصقًا لظهره، لم يجرؤ على الالتفات فنـطق مرتعدًا:

- هُزمت؟

تحركت يدان خلفه، أصابع طويلة باردة كالحديد، والتفّت على عنقه فجأة، شهق أحمد وحاول المقاومة لكن دون فائدة، وصدر صـوت مشوه من مهشّم الأعناق:

- لا تجاهد، من يدخل الظلام لا يخرج كما كان.

اللحظات الأخيرة لأحمد، انقطعت أنفاسه، وباشرت روحه الصعود إلى البارئ، تركته الـغولة ليسقط أرضًا.

انتفض من نومه قبل الفجر، والعرق البارد يملأ جبينه، وقلبه يدق كمن نجا من غرق. تمتم:

- الحمد لله... كان كابوسًا لعينًا.

لم ينتبه أول الأمر إلى الضوضاء البعيدة. ثم بدأت الأصوات تتضح: جلبة، خطوات، نداءات قصيرة، ومصابيح غاز تتحرك كنجوم صغيرة بين الصخور.

صاح صوت من جهة الكهوف:

- هنا... هنا!

نهض أحمد دفعة واحدة، وانساق مع الرجال نحو النداء. كانت الوجوه شاحبة، والنظر زائغًا. دخلوا كهفًا، فتلقفتهم رطوبته وبرده، ورأى دائرة الضوء تتجمع في الداخل.

هناك، على الأرض... رأى فرجًا ملقى على جانبه. عيناه نصف مطبقتين، وعلى عنقه احمرار واضح كأنه أثر ضغط، وبقربه خدش

رفيع ممتد على الجلد، لا يُرى إلا إذا اقتربت العين. كان مصباحه مكسورًا عند المدخل، ولا أثر لعراك حول الجسد.

قال أحدهم بصوت مبحوح:

- مهشّم الأعناق مرّ من هنا...

تجمد أحمد في مكانه. فرك عينيه كأنه يحاول أن يصحو من حلم ثانٍ، لكن الحقيقة كانت أثقل من أن تُدفع. صار الهواء ثقيلًا في صدره، ولم يمد يده إلى رفيقه... كأن الخوف أمسك بذراعه.

تراجع خطوة، ثم تذكر رمضان المربوط بين الشجر أسفل الجبل.

رفع عينيه إلى ليل ينسحب ببطء. كان الصمت بين الرجال حدادًا مبكرًا. شد أحمد أسنانه، وقال لنفسه بصوت لا يسمعه أحد:

- لم يكن كابوسًا... كان إنذارًا.

تراجع من الكهف، والرجال من حوله غارقون بين دعاء وصمت ونظرات تائهة. أما أحمد فكان عقله يركض أسرع من قدميه. لم يستطع البقاء لحظة إضافية. انحرف عن الطريق وقطع المسافة إلى أسفل الجبل كمن يهرب من فكرة تلاحقه.

كان الليل لا يزال معتمًا، ورائحة الرطوبة تلسع صدره. وصل بين الأشجار حيث ترك رمضان.

كان الجسد المربوط إلى الجذع ساكنًا، والرأس مائلًا على كتف واحد كإغفاءة قسرية. اقترب أحمد بخطوات ثقيلة. لم يرد أن ينظر في عينيه، لكنه أجبر نفسه.

قال بحدّة مكبوتة:

- أنت قتلته؟

رفع رمضان رأسه بصعوبة، وقال متعبًا:

- ماذا الآن؟

- أنت قتلت فرجًا؟

- فرج مات؟

- هو جثة في كهف بالأعلى... وتتحدث كأنك لا تعلم!

- تبًا يا أحمد... أقسم بالله لا أعلم. أنا مقيّد هنا ولم أر فرجًا أصلًا.

عندها أدرك أحمد أن توقعاته كانت خاطئة، وأن رمضان ليس القاتل. أخرج سكينه وقطع الحبل. سقط رمضان على ركبتيه يلهث، يسحب الهواء إلى صدره كمن نجا من غرق.

نظر رمضان إلى أحمد بعينين ملتهبتين:

- أسأل الله أن ينتقم منك! تربطني إلى شجرة وتتركني؟ مرت بي الحيوانات... ولولا ستر الله لكنت فريسة!

خرج صوت أحمد مبحوحًا:

- مهشّم الأعناق... نال من فرج.

قال رمضان بحدة:

- ومن هو هذا المهشّم؟!

- ظننته أنت...

- ولماذا ظننتني أنا؟

- كانت هناك آثار دم على صخرة... ظننتها كتابة. ورأيتك تدخل الكهف. ثم مُسحت.

- نعم دخلت... لكني لم أر كتابة ولا دمًا. أقسم بالله. دخلت فقط لأدخن سيجارة بعيدًا عن أعين الرجال. هذا كل ما في الأمر.

ساد صمت ثقيل. اشتعلت في صدر رمضان مرارة، وفي صدر أحمد ذنب. تحولت الكلمات إلى دفعة غضب: لكمة من رمضان، ثم دفعة من أحمد، وتشابكا لحظات.

قطع الشجار صوت حاد من أعلى التلة:

- أحمد! رمضان! توقّفا!

كان مصباح غاز يضيء طريق رجل واحد يهبط إليهما بخطوات واسعة. إنه مفتاح، رأس قادة المجموعة. وجهه متجهم، وغضبه يسبق قدميه:

- هل جننتما؟ رفيقكما قُتل، وأنتما تتشاجران هنا؟!

قال رمضان بصوت واضح يقطر مرارة:

- سيدي... هذا الرجل اتهمني بالخيانة وربطني إلى شجرة كأنني عبد!

التفت مفتاح إلى أحمد بعينين حادتين:

- أهذا صحيح؟

أومأ أحمد برأسه، ولم يجد تبريرًا.

ضرب مفتاح الأرض بعصاه:

- أولًا جازفتَ بنفسك وبالرجال حين خطفت ذلك الجندي الإيطالي دون مشورة. والآن تريد أن تعمل محققًا؟ لماذا اتهمت رمضان؟

قال أحمد بصوت منخفض:

- أخطأت... ولا تبرير عندي. كان شكًا فقط.

اشتد صوت مفتاح:

- وهل أصبح الشك قانونًا؟ خسرتَ رفيقك الليلة... وتريد أن تخسر عقلك؟!

لم يستطع أحمد أن يرفع عينيه إليه، فقال:

- سيدي... مهشم الأعناق ينال منا واحدًا بعد واحد، ويجب أن نكثّف الجهود لمعرفة...

قاطعه مفتاح بصرامة:

- من اليوم... إياك أن تتدخل في هذا الأمر. ما فعلته قمة الحماقة، وأنت مضطرب. وبعد وفاة رفيقك سيزداد اضطرابك. لا أريد منك إلا الراحة أيامًا. نحن في ضيق، ولأجل مصابك لن أضعك في مجلس تأديب... لكن لا تناقشني.

ثم رفع صوته نحو الرجال في الأعلى:

- من اليوم، أحمد بعيد عن هذا الأمر. يُكلّف فقط بالمهام البسيطة: الحراسة، جمع الخشب والتموين، ومراقبة الطريق.

ظهرت على وجوه بعضهم علامات امتعاض، وعلى وجوه آخرين شفقة صامتة. أما رمضان فظل صامتًا، ينفض الغبار عن يديه كمن ينفض ظلمًا علق به.

قال مفتاح وهو يصعد:

- انتهى الأمر. بعد الذي قلئه لا كلام.

بقي أحمد وحده. أحس أن الجبل صار أعلى، وأن الهواء أضيق، وأن الليل لم يعد عتمة فقط... بل حكمًا.

همس لنفسه:

- يريدون نزع القضية مني... بعد أن وصلت إلى أعزّ رفاقي.

***

شاهدٌ في الغابة

كان عزل أحمد عن المهام الكبرى خسارة في الظاهر، لكنه منحه هامشًا لا يملكه غيره؛ صار يتحرك في الخفاء، يراقب ويسأل دون أن تتعلق به الأعين طويلًا، حتى بدا كأنه محقق غير متوج.

في يوم خرج إلى الغابة يجمع الحطب. وبينما هو ينحني فوق الأغصان اليابسة، ناداه صوت من خلف الأشجار، متكلفًا خشونة لا تشبه أصوات الرجال حين يطمئنون:

- لا تتوقف في بحثك يا أحمد. أنت تسير في الطريق الصحيح.

تجمد أحمد لحظة، ثم ألقى ما في يده كأنه تخلص من حمل ثقيل، وسحب بندقيته من على ظهره وصوبها نحو الشجر.

- من هناك؟

- لا يهم. جئت لأقول إنك لست وحدك من يبحث عن الحقيقة. رمضان هو مهشم الأعناق.

شد أحمد قبضته على البندقية، وخرج صوته حادًا:

- اخرج من مكانك قبل أن ترمي الناس باتهامات.

- لن أخرج. جئت لأنطقها وأختفي. رمضان هو زائر الليل. هو الذي يخنق الرجال حتى يزرق لونهم وتبرد أطرافهم، وفي فجر الغد ستكون هناك ضحية جديدة.

ارتفع نفس أحمد، وتبعثرت كلماته رغم محاولته أن يثبت، وقال:

- ماذا تقول؟

- تريد دليلًا؟ ستراه بعينيك. لا تنم الليلة. انتظر الفجر، وسترى يد رمضان تمتد إلى عنق أحد رفاقك.

اقترب أحمد خطوة، كأنه يريد أن يخترق الأشجار بنظره.

- من أنت؟ ولماذا لم توقفه إن كنت تعرف كل هذا؟

لم يأت جواب. سمع أحمد وقع خطوات تبتعد بين الأوراق اليابسة، ثم ابتلعها الصمت. بقي واقفًا لحظات يحدق في الظلال، قبل أن يستدير عائدًا. نسي الحطب كأن الغابة صارت أثقل من أن تُحمل.

في الخيمة، وضع رأسه على الوسادة غير مكترث بالتوبيخ الذي سيتلقاه بسبب غيابه عن الحطب. كان يعد الدقائق، والفكرة وحدها تسحب النوم من عينيه: فجر الغد.

حين بدأ الفجر يتسلل، كان الندى ما يزال عالقًا بالصخور، والبرد يلسع الأصابع حتى من فوق القماش. سكن المعسكر سكونًا غريبًا، والسماء قبل الشروق رمادية تميل إلى الزرقة.

كان أحمد مستيقظًا رغم النعاس. لم يثق بعينيه وحدهما؛ كان يصغي أولًا، كأن الصوت سيكشف الحقيقة قبل الضوء.

رأى رمضان ينساب نحو فم الكهف بصمت. اختفى داخله، وبعد أقل من دقيقة لمح الهادي يتبعه بخطوات مترددة، يلتفت حوله ثم يبتلع العتمة.

انقبض صدر أحمد. من داخل الكهف جاء ما يشبه جدالًا مكتومًا،

ثم ارتفعت حدة الأصوات لحظة. تذكر همس الغابة: رمضان سيقتل من جديد فجر الغد.

لم يصدق الرجل المجهول تمامًا، لكنه لم يستطع تجاهل التحذير. تقدم حتى صار عند مدخل الكهف. الظلام كثيف، والصراخ أوضح. أخرج عود ثقاب وأشعله.

انكشف المشهد على ضوء مرتجف: الهادي ملقى على الأرض، ورمضان فوقه ممسكًا به عند العنق. كانت أصابع رمضان ضاغطة، وعلى رقبة الهادي احمرار واضح يتجمع عند جانب واحد، وخدش رفيع تحت الفك كأنه أثر مقاومة.

صرخ أحمد:

- رمضان! كُفّ يدك عنه!

لم يلتفت رمضان في البداية، كأنه لا يسمع سوى أنفاس الرجل تحت يديه. رفع أحمد بندقيته، وخرج صوته أشد:

- قلت: كُفّ يدك!

أفلت رمضان قبضته فورًا وتراجع خطوة. بدا كمن استعاد وعيه متأخرًا.

- بالله عليك يا أحمد، افهم قبل أن تظلمني للمرة الثانية. سأخبرك.

لم يجب أحمد. انحنى سريعًا نحو الهادي وتحسس عنقه. كان النبض ضعيفًا لكنه موجود. أطلق أحمد زفرة قصيرة، ثم رفع رأسه وبندقيته ما تزال موجهة إلى رمضان.

- رمضان، إن حاولت أن تتحرك من مكانك فستكون نهايتك.

في تلك اللحظة دوّى وقع أقدام راكضة، وتراقص ضوء المشاعل على جدران الكهف. دخل الرفاق واحدًا تلو الآخر؛ وجوه نصف نائمة، وأيدٍ تمسك بالمشاعل.

توقفوا عند المشهد: أحمد قرب الهادي المغمى عليه، ورمضان واقف ويداه مرفوعتان.

قال أحدهم:

- ما الذي يحدث هنا؟

قال أحمد دون أن يخفض بندقيته:

- هذه المرة رأيته بعيني. رمضان كان يخنق الهادي. لولا تدخلي لكان لنا رفيق آخر ضحية لمهشّم الأعناق.

تبادل الرجال نظرات سريعة. تمتم آخر، كأنه لا يريد سماع ما سمعه:

- أتقصد...؟

أجاب أحمد:

- نعم. رمضان هو مهشّم الأعناق.

فتح الهادي عينيه بصعوبة، وصوته خرج مبحوحًا متقطعًا:

- نعم... رمضان كاد أن يقتلني.

اتجهت الأنظار كلها إلى رمضان. لم يطلبوا تفصيلًا طويلًا، وكأنهم

كانوا ينتظرون اسمًا يعلقون عليه الرعب، ثم يرمونه بعيدًا.

وثب اثنان عليه من الجانبين، ولويا ذراعيه خلف ظهره بعنف:

- اثبت! لا تتحرك!

لم يقاوم رمضان ليهرب، لكنه حاول أن يتكلم وهو يُسحب:

- أقسم بالله ليس هكذا... الهادي هو مهشّم الأعناق... هو من جرني إلى هنا.

لم تزده كلماته إلا سوءًا؛ فصورة الهادي في أعينهم رجل مسن، لا تبدو عليه خفة قاتل يتنقل ليلًا ويخنق الرجال واحدًا تلو الآخر.

أسكتَه أحدهم بضربة على رأسه. جرّوه إلى الخارج بقسوة. التفت رمضان وهو يُسحب، ووجهه محمر من الغضب والألم، وصاح:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا أحمد! ظلمتني للمرة الثانية. لن أسامحك ما حييت. هذا عار سيلاحقك حين تظهر الحقيقة.

بقي أحمد وحده في الكهف. أخذ من أحد الرفاق قضيب نار قبل أن يخرجوا، ثم تجمد مكانه كأن الدعوة ثبتت في صدره.

اقترب من الصخرة التي انزلق عليها ضوء الشعلة، فظهرت بقعة دم حديثة، وبجانبها كلمات مخطوطة بإصبع ملوث: (وقعت في الفخ).

تراجع أحمد خطوة. لم يعد الصوت في الغابة مهمًا بقدر ما صار السؤال ينهشه: أهذا كشف حقيقي، أم فخ محكم جزّهم جميعًا إلى اتهام جاهز؟

تمتم بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- لست ذكيًا... أنا أحمق متهور.

خرج من الكهف والبرد يصفعه. وكلما ظن أنه أغلق بابًا فتحت عليه أبواب أخرى. كانت قلة النوم تسحب اتزانه، فقرر أن يغفو قليلًا، لعل الراحة تكسر حدّة هذا الكابوس، أو تسرق منه طرفًا من التعب قبل أن يبدأ النهار.

***

كابوس أم حقيقة؟

غطّ أحمد في نومٍ ثقيل، كأنه يجرّه إلى صراعٍ لا ينطفئ. كان الجسد نائمًا، لكن العقل يقظ، والقلب يخفق كمن يتيه في مكانٍ لا يعرفه. ومن التجربة تعلّم أن العجائب تبدأ عروضها من منتصف الليل حتى الفجر، وأن أسوأ الأخبار ثُقال عند البرد الأخير قبل الصبح، لا في وضح النهار.

انتفض من فراشه متأهبًا، فتوضأ وصلّى، واستغفر بحزن لما فاته بسبب النوم. كان صوته في الدعاء خافتًا، أقرب إلى بكاءٍ مكتوم، يدعو لفرج وللشهداء بالجنة، ويسأل الله الصبر وأن يكشف كل شرٍّ مختبئ.

بعد الصلاة خرج من الخيمة. كان المطر يهطل أحيانًا كرشقاتٍ قصيرة، والبرد يعضّ الأطراف. لمح أحد رفاقه قرب الممر بين الخيام، فسأله عن المستجدات، فأجابه:

- صدرت الأوامر من القادة بأن الكهوف تُستعمل فقط عند المعارك، وممنوع منعًا باتًا الدخول إليها ليلًا إلا إذا كنا مجموعة. حاليًا كل الكهوف مُفرغة من الرجال، رغم أن البرد قارس والمطر ينهمر بين الحين والآخر، لكن هذا أهون من تلاعب مهشّم الأعناق... أو الغولة... أو أيًا ما كان.

- وماذا عن المؤن؟

- الطعام والذخائر وكل مستلزماتنا تبقى داخل الكهوف، وفي النهار نأخذ منها ما نحتاج.

- ماذا عن الأسرى؟

- الأسرى الإيطاليون الثلاثة، بمن فيهم الذي قمتَ باختطافه، ومعهم رمضان، موجودون في ذلك الكهف شديد الحراسة. يتناوب عليه ثلاثة حراس، ويُمنع منعًا باتًا الدخول لأي أحد. اختير ذلك الكهف لعمقه وانحرافه، فلا تكاد ترى مَن بداخله.

- رمضان معهم؟

- نعم. من الصعب وضع الأسرى في أكثر من مكان، لذلك يبقى معهم رمضان حتى ننتهي من التحقيق معه ونتأكد من أمره.

انتهى الحديث، لكن الرفيق عاد وقال بنبرةٍ أثقلها القلق:

- على أي حال... أظن أن الحراسة المشددة لن تنفع إن لم يكن رمضان هو مهشّم الأعناق. ذلك الوحش يتغذى على من يدخلون كهوف هذه الجبال. لربما هي الغولة فعلًا، ولا ترحب بنا ضيوفًا هنا. أدعو الله أن يكون رمضان هو القاتل حقًا... حتى لا نُصدم بعد كل هذه التجهيزات.

تسلّل الرعب إلى أوصال أحمد. تمنّى للحظةٍ أن يكون رمضان هو المجرم، لأن هذا أسهل على العقل من احتمال وجود شيء غير بشري كما تتداوله الألسنة. لكنه تذكر سريعًا أن الحكايات الشعبية تُكثر في الليالي الباردة، وأن الخوف وحده قادر على صنع وحشٍ من الهواء.

تحرك أحمد نحو كهف الأسرى. وجد أمامه ثلاثة حراس بملامح متجهمة، يمنعون القائد والجندي من الاقتراب. قال لهم:

- عندي استفسار مهم. هل دخلتم إلى الكهف واطمأننتم على

الأسرى؟

لم يجبه أحد. أعاد السؤال، فردّ أحدهم بغضب:

- ما فائدة سؤالك؟ نحن هنا منذ مغيب الشمس. دخلنا، أطعمناهم، وتحققنا من احتياجات الجميع. والآن حتى شروق الشمس ممنوع علينا وعلى الجميع الدخول إليهم.

- ماذا تخسرون؟ نظرة خاطفة فقط. لا أطلب فتح التحقيق من جديد. بين الأسرى رفيق لنا... رجل حارب معنا. من حقنا أن نطمئن عليه.

نظر الحارس إليه ببرود، وقال بجفاءٍ لا يخلو من احتقار:

- تقصد ذلك الخائن؟

- لم يقع الحكم النهائي على رمضان بعد. كونوا لينين... ديننا يأمرنا باللين. دع أحدكم يدخل دقيقة واحدة ويطمئن عليه.

بدت كلمات أحمد كأنها لامست أحد الثلاثة. التفت الحارس إلى الخلف ودخل. حاول الاثنان منعه، ثم سحبا بندقيتيهما نحوه، لكنه لم يبالِ، وهما لم يطلقا عليه الرصاص. سمع أحمد صوته يسخر وهو يتوغل في العتمة:

- وما الذي سيحدث؟ الكهف ليس عميقًا لدرجة أني سأختفي... وإن حدث شيء سأصرخ!

انقطع صوته قبل أن يكمل. كأن الظلام ابتلعه.

تبادل الحارسان نظرة قلق، فاندفع الثاني راكضًا لنجدة رفيقه. وما

إن ابتلعته ظلمة الكهف حتى انقطع صوت ضرب أقدامه بالأرض.

في تلك اللحظة رفع الحارس الثالث بندقيته، وصوّبها إلى رأس أحمد وهو يتراجع بعيدًا عن فوهة الكهف، وقال بصوتٍ يرتجف غضبًا:

- كل هذا بسببك. تريد التلاعب بنا، لكني لن أقع في ألاعيبك. ادخل فورًا، ولا تخرج حتى أنادي الجميع!

رد أحمد وهو يحاول أن يثبت صوته:

- هدّئ من روعك يا رجل.

- ألم تسمعني؟ لا تجعلني أُثقِب جسدك برصاصي. ادخل حالًا!

تقدّم أحمد إلى الداخل. أخرج عود ثقاب ليضيء طريقه، لكن كلما أشعله هبّت ريحٌ تطفئه. حاول مرة بعد مرة حتى نفدت أعواد الثقاب. اضطر أن يتوغل متوكلًا على الله، وما إن ابتعد خطوات حتى انقطع نور القمر واكتسى المكان ظلمة دامسة.

ناداهم بصوتٍ حذر:

- هل من أحد هنا؟

كان يعلم أن في الداخل أسرى وحارسين، لكن الشك أخذ يتضخم مع الصمت. همّ بالعودة، فتعثر بعائقٍ وسقط. وحين فتح عينيه لمح نورًا خفيفًا من شعلةٍ معلقة... كأن أحدًا أوقدها الآن.

الدماء في كل مكان، احمرار في الأعناق، الأسرى ورمضان، الجنديان، الجميع لقي حتفه بطريقة واحدة، تهشيم أعناقهم هذا

مـا حدث، هول الـفاجعة أفقد أحمد تركيزه فاستند على الجدار ليتحسس مادة لزجة، حرك أعينه نحوها وكـما توقع جملة بالـدماء منقوشة: (ظلمت نفسك).

هنا ارتدّ المشهد في ذهنه كما ارتدّ سابقًا... لكنه ليس واقعًا، بل كابوس يعيد نفسه.

عاد ذلك الحلم القديم: يدان خلفه، أصابع طويلة باردة كالحديد، تلتفّ على عنقه فجأة. شهق أحمد وحاول المقاومة دون جدوى، وسمع صوتًا مشوهًا يقول:

- لا تجاهد... من يدخل الظلام لا يخرج كما كان.

انتفض مستيقظًا. كان يعرف في قرارة نفسه أنه كابوس، لكن شيئًا في داخله يلحّ بأن هذه الأحلام لا تأتي عبثًا. تمتم:

- تكرار هذه الكوابيس نذير شؤم... والعياذ بالله.

نهض مهرولًا خارج الخيمة، وجسده لم يتعافَ بعد من قفزة الحلم إلى الركض. وقف أمام كهف الأسرى الحقيقي، فرأى الحراس الثلاثة في أماكنهم كما تركهم. قال لهم بحدّةٍ لا تشبه هدوءه المعتاد:

- أريد رؤية المساجين.

نهره أحدهم طالبًا منه الابتعاد، لكن التوتر وخوفه من وقوع مكروه جعلاه يتهور، وفي لحظةٍ خاطفة انتزع بندقية من يد أحدهم وهددهم. تراجع ببطء حتى صار قريبًا من فوهة الكهف، ثم جاء قائد المجموعة مفتاح، فرفع أحمد صوته:

- لم أطلب شيئًا مستحيلًا. أريد رؤية رمضان والاطمئنان عليه!

- أراك متعاطفًا معه؟ أولست أنت من شك به أولًا؟ وأنت من زرع فينا فكرة أنه القاتل؟

- لهذا جئت. لا أريد أن أكون سببًا في إعدام بريء، فما بالك برفيق سلاح. أطلب خمس دقائق فقط لأطمئن عليه وأتحدث معه... خمس دقائق ولن أكثر.

حاول مفتاح مقاطعته، لكن أحمد اندفع:

- رفيقي قُتل، وأهلي مشرّدون، وحربنا مع المحتل يومًا بعد يوم تزداد خنقًا. لن أحتمل أمرًا آخر... ما أطلبه سهل، ومن العيب أن ترفضه.

تكلم مفتاح بعد أن أشار للجنود ألا يتدخلوا:

- لا تتدخلوا. إن كان أحمد لا يريد أن يظلم، فلربما منعي له مشاركة في ظلمٍ آخر. ادخل يا أحمد، وسيرافقك أحد الحراس. خمس دقائق وتخرجان.

- هل يمكن أن أثقل في طلبي؟ انزعوا مني السلاح، لكن دعوني أدخل وحدي.

- وما السبب؟

- أريد أن أتحدث مع رمضان على انفراد.

- أي انفراد ومعه ثلاثة جنود إيطاليين؟

ابتسم أحمد ابتسامة باهتة:

- لا نفهم لغتهم ولا يفهمون لغتنا. وجودهم كعدمه.

هزّ مفتاح رأسه بضيق:

- أستغفر الله... حسنًا. لك هذا، لكن لن أعطيك قضيب نار. اكتفِ بعود ثقاب.

دخل أحمد. لم تهدأ نبضات قلبه إلا عندما رأى الأربعة مقيدين، وحالتهم الصحية جيدة، بلا أثر خنق ولا كدمات. تقدم بخطواتٍ ثابتة، لكن داخله كان مضطربًا كطائرٍ حُبس في قفص.

وقف أمام رمضان. تلاقت نظراتهما لأول مرة منذ تلك الليلة. كان وجه رمضان شاحبًا من الإرهاق، لكنّ عينيه ثابتتان، كأنهما تبحثان عن حقيقة أكثر مما تبحثان عن نجاة.

قال أحمد بصوتٍ منخفض:

- رمضان... هل أنت بخير؟

أجابه رمضان دون أن يشيح ببصره:

- جسدًا نعم. أما روحي فبين مطرقة الاتهام وسندان الخيانة.

ابتلع أحمد ريقه، وبدأ من حيث انقطع كل شيء:

- أعلم أن ما حدث لا يُغتفر، لكني كنت أبحث عن الحقيقة. خسرنا رجالًا، وخسرتُ فرجًا... ومع ضغط الحرب وهجوم المحتل صرت مشتتًا.

قهقه رمضان قهقهة قصيرة موجوعة:

- وكأن من قُتلوا ليسوا رفاقي. أكنت تبحث عن الحقيقة، أم عن دليلٍ يدينني لأنك تراني سببًا في موت عبد السلام؟ لم تكن تنظر في عيني... كأنك ترى سفاحًا لا رفيق سلاح.

تراجع أحمد خطوة، وأسند ظهره إلى الجدار:

- ربما... وربما كان الخوف أكبر منا جميعًا. رأيتُ آثار الخنق والدم، وخشيت أن يكون ما يحدث في الظلام صنع أيدينا. وهناك من وسوس لي بأنك أنت... شيطان من شياطين الإنس.

أطرق رمضان ثم قال بمرارة هادئة:

- هل رأيتني يومًا أقتل أعزلًا؟ أو أمد يدي بسوءٍ لأسير مكبل؟ حتى مع العدو كنت أقلّكم تعصبًا.

- لهذا جئت. أشعر أن مسرحية حيكت... ونحن ممثلوها.

ساد الصمت لحظات. ثم قال رمضان وهو يثبت عينيه في أحمد:

- أتدري ما أشد من الظلام؟ الظلام الذي يتكوّن في صدور الرفاق. يوم بدأت تشك بي ونقلت شكك للبقية، شعرت أن الدنيا زنزانة أضيق من سجني هذا.

اقترب أحمد، وصوته أقرب إلى الاعتذار:

- وأشد منه أن يحمل المرء ذنب بريء. إن أخطأت بحقك فأنا أمامك... أخطأت بريبة لا بيقين. لكن قل لي: ماذا حدث تلك الليلة؟ لماذا هاجمتَ الهادي؟

لانَت ملامح رمضان قليلًا:

- سأخبرك، لكن عدني أن تثبت براءتي أمام الجميع. لا أريد أن أُعدم كخائن.

- أقسم أني سأفعل. قل لي... الوقت ضيق، والقاتل بيننا.

تنفس رمضان بعمق وبدأ:

- تلك الليلة ذهبت لأدخن داخل أحد الكهوف. كان صغيرًا، يضيئه ضوء القمر خافتًا. لمحت كتابة على الجدار، فأشعلت عود ثقاب... وتجمّد جسدي. كانت بالدم مكتوب: (وقعت في الفخ). وفي اللحظة نفسها سمعت صوتًا خلفي... كان الهادى.

- وبعد؟

- لا بعد. هاجمته فورًا. ظننت أنه مهشّم الأعناق. لم أترك له مجالًا. ثم أتيتَ أنت، وعلمتُ أننا صرنا ممثلين على مسرح مخرج يتلاعب بنا.

قال أحمد بمرارة:

- حالك من حالي... أنت أيضًا ظلمت رجلًا.

- لي أسبابي.

- وأنا كذلك... لكن لا وقت للجدال.

أخذ أحمد نفسًا، ثم قال بنبرةٍ أكثر تركيزًا:

- هناك طرف خيط. من كتب الجملة بالدم أراد أن يخدعك لتهاجم الهادي. لكن كيف عرف أنك ستدخل ذلك الكهف؟ ولماذا لحقك الهادي؟

هزّ رمضان رأسه:

- لا أعلم. دخولي كان عشوائيًا.

رفع أحمد كفه وكأنه يحسم قرارًا:

- اسمعني. سأكتشف الأمر بنفسي. لا تخبر أحدًا. أمهلني أيامًا قليلة. هناك شيء أريد التأكد منه... وعندها سأسقط خرافة الغولة من عقولنا.

توسل رمضان بصوتٍ مبحوح:

- لا تتركني. لست أخشى الموت... أخشى أن تُكتب الخيانة على جبيني وتبقى ندبة في تاريخ أسرتي.

- بإذن الله سأفعل ما بوسعي.

خرج أحمد من الكهف، والحيرة أثقلته. ظلّ الشك يطارده رغم صدق نبرة رمضان، لكن في ذهنه نقطة واحدة قد تبرئه، وفي المقابل تؤكد أن خصمه شديد الذكاء، يغذي خطته بالحيل والخداع.

لم يضيع وقتًا. عاد إلى القائد وإلى الرجال، وأخبرهم بقصةٍ عامة لا تكشف ما دار. ثم قال قبل أن ينسحب:

- لا أعلم إن كان رمضان بريئًا أم لا. القرار قراركم. فقط لا تستعجلوا... عندي شكوك بلا يقين.

كلماته كانت مقصودة. صار الجميع في نظره متهمًا.

انطلق نحو الكهف الذي ذكره رمضان. كانت الريح الباردة تعصف

بالأغصان، والليل ساكنًا أكثر مما ينبغي. دخل أحمد بخطى حذرة، وبحث يمينًا ويسارًا، أعلى وأسفل. لا خربشة، لا دم، ولا أثر حتى لقطرة.

همس:

- كما توقعت... هناك من أراد إخفاء الحقيقة.

ثم شدّد صوته وهو يخرج:

- وكما كان حديثي مع رمضان سرًا... يجب أن يكون حديثي مع الهادى سرًا أيضًا.

تحرك عبر طريقٍ ضيق بين الصخور نحو مخيم العلاج، حيث تُعالج الإصابات بأقل الإمكانيات. كانت نار صغيرة تشتعل بهدوء، والرجال بين نائمٍ وشبه نائم.

دخل خيمة الهادي. فوجئ برجلٍ يجلس بقربه، يقرأ من كتابٍ صغير ليؤنسه. توقف أحمد عند الباب وقال بلطفٍ ممزوج بصرامة:

- أشكرك على اهتمامك. قد قمت بواجبك وأكثر. سأكمل من هنا... هو بحاجة إلى الراحة.

نظر الرجل باستغراب:

- لماذا تخاطبني بهذا الأسلوب؟

اقترب أحمد ووضع يده على كتفه بنبرة لا تحتمل نقاشًا:

- أمرٌ من القائد أن يُصرف أي أحد من عند الهادي... حتى أقرب أصدقائه. اذهب الآن.

- القائد طلب هذا؟

- بل أمر به. وإن كنت غير مصدق فاذهب واسأله.

تردد لحظة، ثم نهض:

- حسنًا... انتبه له.

ما إن خرج حتى همس أحمد وحده:

- الآن لدي دقائق قبل أن تُكشف خدعتي. عليّ إيقاظ الهادي وسحب الكلام منه.

جلس قرب الهادي. كان الرجل ضعيفًا، يتنفس بصعوبة. اقترب أحمد حتى كاد يبتلع صوته داخل الخيمة، ثم قال:

- استيقظ يا عم الهادي. هناك كلام لا يحتمل التأجيل.

رفع الهادي رأسه قليلًا، وبصوت مبحوح:

- بسم الله الرحمن الرحيم، أحمد هذا أنت؟ ماذا هُناك؟

نطق أحمد:

- سأطرح عليك سؤالًا واحدًا وإجابتك ستغير كل شيء، ليس لدينا وقت، فلملم شتات نفسك واصبر على ألمك وتكلم بما عندك.

وهنا تتوقف اللحظة بعد أن رمى بسؤاله منتظرًا الجواب، فتح الهادي فاهه مرتجفًا:

- نعم... رأيتها. كانت هناك كتابة بالدم على الجدار. لكني لا أقرأ، فلم أفهمها.

تنفس أحمد ببطء:

- هذه شهادة تفتح باب براءة رمضان.

ارتبك الهادي:

- لماذا؟

- لأن رمضان أخبرني أن الجملة كانت تقود الشك نحوي. وعندما ذهبث لأراها لم أجدها. من مسحها أراد أن يطعن في صدق رمضان... لكنه نسي أن هناك من رآها قبلي.

هز الهادي رأسه:

- أتقصد أن رمضان بريء؟

- الحمد لله رب العالمين، نعم بريء، بل أؤكد لك لم يعد للشك في هذا الموضوع، رغم أن هذا يعني أن هناك داهية تلاعب بنا شر تلاعب ولـكن على الأقل براءة أحد رفاقنا ظهرت.

قال الهادي بصدقٍ موجع:

- لا تتردد في إخبارهم إن كان هذا ينفعه. الآن لا ألومه على ما حدث.

مال أحمد للأمام:

- انتبه. حديثنا يجب أن يبقى سرًا. هناك ثعلب بيننا يظن أن خطته نجحت. نحن الآن نتقدم عليه بخطوة... لا تثق بأحد مؤقتًا، حتى أقرب الناس إليك.

سكت الهادي لحظة، ثم قال:

- وما الذي يدفعني للثقة بك؟

- لأنني أنا من أوقعت برمضان. لو كنت القاتل لأبقيت التهمة عليه... لا أن أبحث عن براءته.

- معك حق.

- بقي سؤال أخير... لماذا لحقتَ رمضان تلك الليلة؟

تذكر الهادي فجأة، وقال كأنه انتبه للتو:

أتعلم الآن تذكرت، لربما عرفتُ يا أحمد من هو مهشّم الأعناق.

- كيف؟

- كنت أحرس كهف التموين، فإذا بشاب صغير يخبرني أن أذهب إلى كهفٍ ما على عجل وأشار بيده. قال: إن مشكلة حدثت، وأنه سيوقظ البقية، ثم ركض. ركضتُ خلف رمضان... والبقية أنت تعرفها.

شدّ أحمد فكه:

- وبالطبع لا تعرف اسم ذلك الشاب؟

ابتسم الهادي بمرارة:

- كيف عرفت؟

- داهية مثل ذلك الشخص لم يخترك إلا وهو يعلم بأنك لا تعرفه ولا تعرف اسمه، اختار رجلًا مسنًا سيصعب عليه تتعب أثره إن

اكتشف أنه تم التلاعب به.

- نعم أقسم بالله أني لا لم أره من قبل، هو من الشباب الصغار هذا فقط ما أعرفه.

- هل يوجد بوجهه علامة مميزة؟

- لا أعتقد، في الأساس أخبرني على عجل وركض مبتعدًا لكن إن رأيته فحتمًا سأعرفه.

قال أحمد بحسم:

- ارتح يا عمي الهادي وحوارنا هذا يجب أن يبقى سرًا، غالبا سيحاول ذلك الفتى إخفاء نفسه عنك لكن إن قابلته أبلغني.

في تلك اللحظة دخل القائد مفتاح غاضبًا. اعتذر أحمد سريعًا، فتدخل الهادي مدافعًا عنه:

- اتركه يا مفتاح. حديث هذا الشاب يضحكني ويخفف عني ثقل الأيام. يذكرني بشبابي وحيويتي.

***

الوقت يضيق

مرت الأيام والمعارك بين كرٍّ وفرّ. يستمر غراتسياني في خطته لتفريغ الجبل من السكان، يدفعهم نحو الأسلاك والمعتقلات. تعج الطرق بعربات وشاحنات المحتل. ورغم كل ذلك، يحمل ذلك الشاب في قاع ذهنه حجرًا ثقيلًا: خائن يتخفى بينهم. شقّ واحد في الصف كفيل بأن يبتلع السرية كلها ويقودهم إلى المصيدة.

خفتت آثار مهشّم الأعناق، كأن الصمت جزءٌ من خطته. سكون مشدود كحبل ينتظر رقبة جديدة. لا ضحايا في الأيام الأخيرة، وكأن القاتل يمنح الاتهام وقتًا كي يثبت على رمضان الذي لا يزال محتجزًا. دليل براءته واضح، لكن الثقة في أحمد جعلته يصمت. وفي صمت رمضان شجاعةٌ من نوعٍ آخر: أن يجازف بحياته فداءً لرفاقه، وحتى يكشف الضباب عن وجه ذلك المتلاعب.

ينفد الوقت من أحمد. كل ساعة تضيف ظلًا جديدًا فوق وجه الحقيقة. وبراءة رمضان التي يدركها قلبه لم تثمر إلا اعترافًا مروعًا: ثمة قاتل طليق يجوب سفوح الجبل ووديانه، يتحسس الطريق بأطراف أصابعه، ويقيس المسافة إلى الرقاب كأنه يعد أنفاسها.

وقف حسن إلى جانب أحمد الذي كان جالسًا حائرًا، وسأله:

- ما الذي يشغل بالك؟

رفع أحمد رأسه، وقال كأنه يفرغ ما في صدره دفعة واحدة:

- قُطع الإمداد بيننا وبين مصر بسبب الأسلاك الشائكة التي فرضها المستعمر، وهناك قصف مستمر بالمدفعية والطيران، ثم ترحيل

لأهلينا إلى المعتقلات، والمعتقلات ليست إلا مقابر جماعية. مصادرة للمواشي، وتضييق الخناق على القرى. ماذا بعد ينتظرنا من هذا المستعمر؟

تأمل حسن ملامحه وقال:

- شرارة الغضب تتطاير من عينيك.

- الشعور داخلي، ويجب أن يشاركني فيه الجميع... فالمصاب واحد.

مال حسن نحوه:

- لنقم بهجمة تربك تحركاتهم وتعلمهم بأن الأرض ترفضهم.

هز أحمد رأسه:

- شدد القائد علينا بالانصياع للأوامر في أحلك الظروف. لن نكسر أمر القائد.

ابتسم حسن ابتسامة قصيرة:

- طبعًا لن نكسر أمر القائد علنًا. نوجه ضربة صغيرة لا تغضبه وتوجعهم: نقتل بعض جنودهم.

اشتدت ملامح أحمد:

- أوامر القائد واضحة. أنا كسرتها كثيرًا، وبصعوبة استعدت ثقته. لن أجازف هذه المرة.

اقترب حسن خطوة، وقال بنبرة أثقلها الغضب:

- أوامره واضحة، نعم. لكن ما يعانيه أهلنا في المعتقلات أوضح. يا أحمد... الثأر واجب، خصوصًا من الخونة.

توقف أحمد عند الكلمة:

- خونة؟

- كما سمعت. علمت أن القوات التي تسير نحو الجبل الأخضر يتقدمها فريق تأمين، وبينهم دليل. الدليل من بني جلدتنا، ليبي الأب والأم، كبر وترعرع في هذه الأرض. هذا الخائن... قتله سيفقد المحتل ركيزة مهمة ويحمي عنصر المفاجأة لدينا. وهكذا كلما أحضروا خائنًا اصطدناه.

تجسدت الصدمة على وجه أحمد:

- كيف علمت كل هذا؟

ابتسم حسن، ومسح التراب عن كفيه:

- عليك ألا تستخف بقدرات غيرك. لست الوحيد العبقري هنا. كانت ليلة بلا قمر. هبطتُ إلى نقطة كان بعض جنود المحتل مستقرين فيها يخططون. لم يكن تأمينهم شديدًا، ولعلهم لم يتوقعوا أن يتسلل أحد لموقعهم. أخذت احتياطاتي بارتداء زي كزيهم العسكري.

قطب أحمد جبينه:

- ومن أين تحصلت على الزي؟

- أبقِ الأمر سرًا. سرقت زي أحد الجنود الذين أسرناهم. على العموم... اختبأت خلف عربة التموين، فسمعت صوتًا بالعربية ممتلئًا

بالكسور يقول: أنت ابن الجبل وتعرف هذه الدروب، أرشدنا إلى كل طرق هذه الجبال، علينا ضرب هؤلاء المتمردين. فهمت أن معهم دليلًا منا. وتلصصت على الحديث الذي دار بينهم، وعلمت بأنهم يجهزون للهجوم على الجبل.

سأل أحمد بحذر:

- يتحدثون بينهم بالعربية؟

- لا... بالإيطالية. لكن في السنتين الماضيتين كان يفرض علينا المستعمر في القرية التعلم فقط بالإيطالية. ورغم أننا لم ندرس كثيرًا، تعلمت بعض الكلمات والجمل، فأفهم لغتهم قليلًا.

تنفس أحمد ببطء:

- فهمتك. وماذا عن الدليل؟ هل رأيته؟ هل هو من رفاقنا؟

- لمحته للحظات حين خرج من خيمة الضابط. كان الليل ثقيلًا، غير أن وهج النار كشف عن ملامحه. هو ليس من رفاقنا، أنا واثق. لعله من سكان الجبل... لكني لم أعرفه.

قال أحمد بسرعة، كأنه يدفع شبهة بعيدًا:

- إذن هو ليس رمضان.

استدار حسن إليه باستغراب:

- ماذا تقصد؟ لقد أمسكنا مهشم الأعناق... بل أنت من اكتشف ذلك.

ارتبك أحمد ورد سريعًا:

- أعلم، أعلم... مقصدي أن لعل هناك شريكًا له. الخونة كثر.

ضيق حسن عينيه:

- فهمتك... ظننتك تشك بأن رمضان ليس القاتل.

تدارك أحمد نفسه:

- عرفت اسمه؟

- لم أبحث عن اسمه. يكفيني أني أعرف تفاصيل وجهه وملابسه المبهرجة.

صمت أحمد لحظة، ثم قال:

- سامحني يا حسن... ما الدليل على كلامك؟

رفع حسن يده كأنه يرسم خطًا في الهواء:

- سمعت كل شيء، وأعرف خط سيرهم. فريق التأمين يتقدم الجيش، لذلك أستطيع أن أطلعك على مكانهم. جهزت خطة كاملة للإيقاع بهم. إذا كان خط سيرهم كما أتوقع، فأنا أعرف إلى أي نقطة هم ذاهبون وأي قرية سيمرون بها. اسمعني... أنا سأذهب الآن، فالوقت يداهمنا. هؤلاء الملاعين يتحركون بسرعة بعد أن تغادرنا الشمس.

نهض حسن غير مبالٍ برد أحمد. لم يجد أحمد خيارًا إلا الموافقة واللحاق به.

وبنفس طريقة التسلل، انطلق الاثنان مرتديين ملابس الجنود الإيطاليين. نزلا من أسفل الجبل نحو طرق وعرة. وبعد مسافة

ساعة، كان العرق يتقاطر منهما وهما منهكان مختبئان، والصدمة تعتلي وجهيهما: فريق التأمين أمامهما. وهذا يعني كارثة حقيقية للمجاهدين... فالمسافة بينهم وبين جيش المحتل ساعة فقط.

قال أحمد:

- هذا فريق التأمين، صحيح؟ هذا يعني أن جيشهم قريب من هنا. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

رد حسن وهو يحدق في الصفوف:

- تماسك. ركز... ذلك الذي يرتدي القميص العربي والشنة البيضاء. ذلك هو الدليل. الأمر بسيط: قتله سيربكهم ويؤخر تقدمهم، مما يتيح لنا الانسحاب من الجبل إلى جبل آخر... أو موقع آخر مؤقتًا.

ثم تغيرت نبرة حسن فجأة، وأشار:

- انظر... الدليل دخل ذاك المنزل المهجور. دعنا نتحرك إلى الباب الخلفي ونفاجئه.

فعلا ذلك. لكن الباب كان موصدًا، وفتحه بالقوة يعني جلب الجلبة. نبه حسن أحمد إلى الثبات في مكانه، ثم تسلل هو من النافذة الجانبية ليباغته.

تصلب أحمد عند الباب الخلفي. أطبق الصمت على البيت المهجور لحظات، كأن الجدران تحبس أنفاسها. ثم ضوضاء من الظلمة صرحت بقتال دائر. وفجأة فُتح الباب الخلفي، وركض الدليل نحو أحد الوديان.

انخفض أحمد بين الشجيرات، ثم اندفع خلفه بخطوات محسوبة. كان الدليل يركض ركض من ذاق السجن وذاق الجوع. لا يلتفت. وفي لحظة مباغتة التفت، رافعًا مسدسًا صوب أحمد.

انعكست الأدوار ليصبح الصياد فريسة، وتجمد أحمد رافعًا يديه إلى السماء.

كانت الأجواء مشحونة والوضع على أشده. وفي باطن عقله مرّ خاطرٌ خافت:

- أشعر أن ما حدث كان فخًا... وأن حسنًا أوقع بي. لا أعلم لماذا يراودني هذا الشعور، لكن لا فائدة من التفكير الآن.

أخرج الكلمات من صدره وقال للدليل:

- خيانتك ستلاحقك وتلاحق أهلك وكل من حولك. جلبت العار لكل من يعرفك. لست خائفًا من الموت... لكن حزني أن يقتلني ابن بلدي.

جاءه الرد بصوت مرتعش شديد:

- ماذا تقول؟ أتجرؤ على اتهامي بالخيانة وأنت مع المستعمر ترتدي ثيابه وتقاتل إلى جانبه؟ يا قباحة فعلك!

شد أحمد على فكيه:

- تريد قلب الدور علي؟ ارتديت هذا الزي النتن حتى أتسلل بين جيش المحتل وأصطادك لأمنعك من الوشاية علينا. لا تحسبني معك في نفس القائمة. ماذا فعلت برفيقي؟

- من رفيقك؟

- حسن... شاب ليبي رافقني لاصطيادك. دخل المنزل الذي كنت به ليقتلك يا خائن دينك وأرضك. قتلته، صحيح؟ والآن تريد قتلي.

هز صوت الرصاص المكان مقاطعًا كلام أحمد. سقطت الجثة فورًا، وانطفأت المقاومة معها. كانت بندقية حسن هي التي أنقذت الموقف... وفندت هواجس أحمد.

قال حسن وهو يقترب:

- في الوقت المناسب.

التفت أحمد إليه:

- الحمد لله. بارك الله فيك يا حسن.

- فيك بارك الله. الخطأ خطئي من الأساس... هرب مني هذا الخائن.

- ماذا نفعل الآن؟

- تسألني أنا؟

- نعم يا حسن. أعترف بمهارتك، ولا أعتقد أني سأناقشك الآن.

لوح حسن بيده:

- لا تحرجني. الأمر واضح: علينا العودة وتنبيه الرجال بما حدث. بما أننا قتلنا دليلهم، هذا سيعطينا الوقت الكافي للانسحاب قبل أن يكتشفوا مكاننا. جهز أقدامك... أمامنا مشوار ساعة للعودة.

تقدم أحمد نحو جثة ذلك الفتى. أمسكه من ثيابه، رفعه كأنه يريد ضربه... ثم نفضه وتركه. ما الفائدة؟ تحرك هو وحسن عبر الطريق الوعرة الملتوية، يلهثان، والعرق يختلط بغبار الجبل، حتى بدأ معسكر المجاهدين يلوح بين الصخور والأشجار: خيام صغيرة، ونار خافتة، ورجال متحفزون.

ما إن لمحهم أحد الحراس حتى هتف:

- أحمد! حسن! من أين جئتما بهذا الزي العسكري؟

وركض آخر باتجاههما:

- القائد مفتاح يطلبكما فورًا.

تبادل أحمد وحسن نظرة سريعة، ثم تابعا الصعود نحو الصخرة التي اعتاد القائد الوقوف عندها، يراقب منها الوادي وما حوله في ظلام الليل.

كان مفتاح واقفًا ويده على مقبض بندقيته. لم يلتفت حين توقفا قريبًا منه، بل قال بصوت بارد:

- ما هذا الذي أراه؟ زي المستعمر على أجساد مقاتلينا؟

تقدم حسن خطوة محاولًا أن يسبق أحمد إلى الكلام:

- سيدي، اضطررنا لذلك. كانت خطة سريعة لإنقاذ الجبل من كارثة أكبر.

التفت مفتاح ببطء. نظرة واحدة كافية لتعيد حسنًا خطوة إلى الوراء. ثم ثبت عينيه على أحمد:

- تكلم أنت.

ابتلع أحمد ريقه:

- علمنا أن المحتل وجيشه يتقدمون نحو مناطقنا بفضل دليل يعرف الطريق إلينا. لذلك نزلنا أنا وحسن إلى أسفل الجبل. تسللنا حتى وصلنا إلى موضع فريق التأمين. رأينا الدليل الليبي بينهم. تبعناه إلى بيت مهجور. هرب من الباب الخلفي. لحقته ففاجأني بمسدسه... كاد يقتلني، لولا أن حسنًا سبقه برصاصة. بذلك ضمنا وقتًا وعطلنا هجومهم.

رفع حسن ذقنه قليلًا كأنه ينتظر كلمة شكر. ظل مفتاح صامتًا للحظات، ثم قال بهدوءٍ حانق:

- وهل تحركاتكما هذه كانت بأمرٍ مني؟ هل أذنت لكما بترك مواقعكما؟ هل ناقشتما الأمر مع أحد من قادتكما؟

حاول أحمد الشرح:

- سيدي... لو لم نقتله لوصلوا إلينا وحدثت كارثة لا يُحمد عقباها. كنا سنُحاصر بين مدفعيتهم ورصاص بنادقهم. قتل الدليل يؤخرهم ويُربك صفوفهم.

انفجر القائد، فعلا صوته كضرب الرعد:

- وهل قررتما أنتما وحدكما كيف تُدار الحرب؟ ترتديان ثياب العدو، تنزلان من الجبل دون علم أحد، تعودان لي ومعكما حكاية من قتل من! لو قُتلتما هناك لقالوا عنكما هاربين أو خائنين. ولو أُمسكتما... لربما وفرتما عليهم عناء الانقياد خلف الدليل!

قال أحمد بسرعة:

- لا... هذا مستحيل. نحن لسنا بوشاة.

شد مفتاح قبضته:

- اخرس. أنتما عصاة أشقياء. سئمت هذا يا أحمد... أقسم بالله العظيم سئمت. أنت بالذات أربكت صفوفنا وجلبت لنا صداعًا نحن في غنى عنه. سامحناك وتغاضينا عن طيشك من أجل ماذا؟ نعم نحن بحاجة إلى كل مقاتل، وتحديدًا أنتم الشباب، لكن أفعالك أصبحت لا تطاق. ليس كل مرة تسلم الجرة، وقد توقعنا في كارثة. ماذا أفعل معك؟ أطردك؟ لولا أني أخشى أن تقع بين يدي المحتل لما ترددت.

انخفضت رؤوس بعض الرجال القريبين. فهموا أن العاصفة ليست على أحمد وحسن فقط، بل على الأوضاع كلها. وفي تلك البرهة تقدم رجل من الصفوف الخلفية: سليمان، أحد الكبار الذين لهم احترامهم، وقال مقاطعًا:

- يا مفتاح، مع كامل الاحترام... رغم صحة كل ما تقول، للشابين فضل كبير لا يمكننا إنكاره.

رمقه مفتاح بنظرة حادة:

- ماذا تقصد؟

- لا يهم ما أقصد. كلامي قد يشجع غيرهما على عصيان الأوامر. لكن الآن أمامنا خطر أكبر: رأينا بأعيننا غبار عربات المحتل وهو

يقترب من الوادي. قُتل الدليل، نعم، لكن الطريق إلى الجبل سيكتشف، وأظن الأمر لن يتطلب سوى بضع ساعات. إن بقينا في مواقعنا سنكون فرائس لرصاصهم وقذائف مدفعيتهم وقنابل طيرانهم. علينا التحرك... ونوفر العتاب لوقت لاحق.

تبادل الرجال النظرات، ومرت في رؤوسهم صور المعتقلات والأسلاك والجوع، ونساء وأطفال يساقون إلى المجهول. قال أحدهم:

- لا يهم... نحن مستعدون لمواجهتهم ثأرًا لأهلنا. نحن أهل هذه الأرض ولن يستطيعوا معنا شيئًا.

رد سليمان بحزم:

- الشجاعة في غير موضعها حماقة. معركتنا الآن خاسرة، وهذه حقيقة لا يغيرها الحماس. سقوطنا هنا لن يكون بطولة، بل طعنة في ثقة المجموعات الأخرى التي تنتظر منا خبرًا يحيي عزيمتها. خلفنا عائلات يحاصرها المحتل... سقوطنا خذلان لهم قبل أن يكون موتًا لنا.

تنهد مفتاح:

- ماذا سنفعل إذن؟ نترك المواجهة؟

- لا. إعادة التموضع فقط. نفرغ الكهوف من المؤن بما نستطيع. نتفرق على قمم أخرى. نرهق العدو قبل أن يصل إلى مكان واحد ثابت. البقاء هنا خطر حقيقي.

مرت لحظة طويلة كأن الهواء نفسه ينتظر القرار. أخيرًا قال

مفتاح:

- حسنًا. لن نسلم الجبل لهم ونحن واقفون في مكان واحد كالأوتاد. استعدوا... خلال ساعة تكون الخيام مطوية والمؤن الضرورية محمولة. سنتحرك إلى معسكر الشيخ هارون.

ثم التفت نحو أحمد وحسن:

- أما أنتما فحسابكما لم ينته بعد. ومع ذلك لن أضيع الوقت في محاكمة الآن. ما فعلتماه قد يؤخر العدو، لكن لا تظنوا أن البطولة تقاس بمخالفة الأوامر.

قال سليمان كأنه يدفع بآخر حجر:

- هناك شيء آخر... مجرد اقتراح. الأسرى الذين لدينا وجودهم الآن لن يفيد. أعتقد أن التخلص منهم أفضل.

اشتد وجه مفتاح:

- كيف تقول هذا؟ هذا ليس في ديننا!

- لكنهم سيعرقلون حركتنا، وإن تركناهم هنا فسيشون بنا وبطريق هربنا.

- لا. هذا أمر لا نقاش فيه... سنأخذهم معنا.

خفض سليمان صوته، لكنه زاد قسوة:

- على الأقل رمضان... هو خائن في النهاية، والقصاص واجب.

صُدم أحمد وتدخل:

- هذا جنون. تريدون قتل شخص لم يُثبت بعد أنه القاتل؟ ما الذي جرى لعقولكم؟

دخل حسن في النقاش، واشتد الكلام:

- لماذا هذا الدفاع عن مهشم الأعناق؟ لماذا تدافع عن خائن قتل رفاقنا؟

- الذين قتلوا من بينهم أعز رفيق لي. لست غيورًا عليهم أكثر مني. لكن لا يقين عندنا أنه خائن. كل ما بين أيدينا ظنون. والرجال لا يُقتلون بالظنون... وإلا صرنا مثل المحتل نسحق كل من نشك به.

- تدافع عن رمضان رغم أنك أول من اتهمه. عقلك غير متزن.

- نعم اتهمته... ثم بحثت، ثم راجعت نفسي، ثم رأيت ما يدعو إلى الشك في الاتهام. لم أبرئه، لكن لن أسمح بأن يُقتل حتى تثبت التهمة عليه.

- متى بحثت؟ طوال الوقت كنت معي، ولم تعارض فكرة أن يكون هو القاتل، فمتى وجدت الوقت لتغير أفكارك؟

- ربما كنت لا أريد كشف شكوكي هذه أمامك يا حسن.

قطع مفتاح الجدال:

- أنهيا هذا النقاش. لدي مهمة لن يستطيع غيركما القيام بها.

سحبهما على انفراد، وقال:

- ما قمتما به ضرب من الشجاعة... لكني أتمنى ألا يتكرر حتى لا يتحمس غيركما لأفعال متهورة. لا أريد تكرار كلامي. ومع ذلك... ما

فعلتماه يجعلني واثقًا بكما، وأنا بحاجة لشباب لهذه المهمة.

رد الاثنان معًا:

- علم سيدي... نحن تحت الأوامر.

- انتقالنا إلى معسكر الشيخ هارون دون إبلاغه قد يربكه. أطلب منكما التحرك بسرعة إلى معسكرهم وإبلاغهم بالمستجدات... وأننا آتون في الطريق.

قال أحمد بقلق ظاهر:

- لماذا نحن؟

- أنا وبعض القادة فقط نعرف الطريق إلى معسكر الشيخ هارون. لا نستطيع الذهاب الآن لانشغالنا بتنظيم المعسكر قبل المغادرة. ولا يمكنني إرسال أي شاب وإخباره بالطريق... ليس شكًا، لكن الاحتياط واجب. أما أنتما... ففعلتكما السابقة أثبتت أنكما أهل للثقة.

حاول أحمد أن يناور:

- دع حسنًا يذهب وحده.

قاطعه مفتاح:

- لا تجادلني يا ولد. اذهب مع رفيقك واحم ظهره. وطول الطريق سيصفي الجو المشحون بينكما. أريد منكما المسافة ركضًا... ساعة تقريبًا. وانتبها أشد الانتباه: لا أريد أحدًا يراقبكما.

أعلمهما القائد بالطريق كاملًا نحو موقع الشيخ هارون ورفاقه. ثم قال لأحمد قبل أن يتحرك:

- لا تحمل عليّ في داخلك حقدًا يا فتى. أنت ذكي ونشيط، لكن ينقصك التركيز والثبات. أنت شجاع في الميدان، لكن عقلك يسبقك أحيانًا في الظنون. توبيخي لك اليوم ما كان إلا درسًا... لتدرك أن التهور عاقبته كبيرة، وأن نجاتك حتى الآن تيسير من الله عز وجل.

***

سقوط القناع

تحرّك الاثنان بعد أن تيقّنا أنّ أحدًا لم يتبعهما، وكان الصمت بينهما أثقل من البنادق على كتفيهما، لا يُسمع إلا خشخشة الحصى تحت الأقدام، ونباح كلاب بعيد، وهمس الريح وهي تحتك بالأشجار. كانا يراقبان الطريق يمينًا ويسارًا، وفوقًا وتحتًا، يفتّشان الحفر وما وراء الأشجار والأحجار.

مرّت نصف ساعة أو يزيد قليلًا من السير المتواصل. كان العرق يبلّل عنقيهما، من الداخل والخارج. وظلّت الأفكار رفيقة أحمد، تنهش عقله وهو يحاول أن يُبقي بصره ثابتًا على الطريق.

فجأة توقّف حسن ووضع كفّه على جبينه، كأن مصيبة قفزت إلى ذاكرته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله... كيف نسيته؟

التفت أحمد فورًا.

- ماذا هناك؟

تلعثم حسن لحظة، ثم قال بسرعة كأنه يخشى أن يبتلعه الصمت.

- مصحفي... المصحف الصغير الذي أعطتني إيّاه أمّي قبل أن أترك القرية. تركته في الخيمة. والله لو كان شيئًا آخر لتغاضيت، لكن مصحفي لا أستطيع أن أتركه.

تسمّر أحمد في مكانه. لم تربكه الكلمة وحدها، بل طريقتها حين خرجت. قال بهدوء متكلّف، كأنه يختبر نبرة حسن لا كلامه.

- ألا ترى أنك تبالغ قليلًا؟

ضحك حسن ضحكة قصيرة يحاول بها كسر حدّة الموقف.

- هذا المصحف من أمّي. إن لم أعد فلن ينتبه أحد له وسيضيع. يجب أن أصل إليه قبل أن يسيطر الاحتلال على موقعنا. عليك أن تتفهّم موقفي.

لان أحمد قليلًا، ثم تلفّت نحو الجبل حيث بدأت آثار المعسكر تتلاشى بين الظلال. وبعدها عاد بنظره إلى الأمام، حيث ينتظرهم المجهول.

- حسنًا. سأتقدّم قليلًا إلى أن تعود. لا وقت لدينا لنضيّعه.

- هذا ممتاز. لا تقلق، سأذهب وأعود كالبرق، ولن تشعر بغيابي.

انطلق حسن نحو الجبل. وقف أحمد في مكانه دقائق، لكن شيئًا داخله كان قد تحرّك: تراكمات وأسئلة ظلت تبحث عن جواب. ترك حسن يبتعد خطوات، ثم انحنى وانساب بين شجيرات منخفضة، واتخذ مسارًا موازيًا لمسار حسن، على بُعد كافٍ ليبقى خارج عينه.

كان الفجر يقترب، والإنهاك حلّ بجسد أحمد من كثرة ما مرّ به في الأيام الماضية. ومع ذلك، أحسّ أن الإجابات باتت قريبة، وأن عليه أن ينتزعها قبل أن ينهار جسده.

بدأ يلاحظ أنّ حسنًا لا يصعد نحو موضع معسكرهم، بل ينحرف إلى اتجاه آخر. خطواته ليست صاعدة نحو مأمنهم، بل مائلة إلى جهة لا يعرف أحمد ما نهايتها.

حدّث أحمد نفسه وهو يبتلع ريقه.

- يبدو أن شكوكي في محلها... ما الذي يحدث؟ تبًا، لا أستطيع أن أواصل تتبعه خفية أكثر. قد نقترب من معسكر العدو. النعاس ينهشني والإرهاق يشدّني إلى الأرض. يجب أن أحسم الأمر الآن.

ابتعد الاثنان عن مسار الجبل وعن الطريق الذي حدّده لهما القائد. وعند منزلق كثيف الأعشاب، تقدّم أحمد خطوة حتى صار بينهما أقل من مترين. مزّت الريح الباردة بينهما كأنها شاهد صامت.

- توقّف يا حسن. الآن نحتاج أن نتحدث.

التفت حسن، وضاقت عيناه.

- تتبعني؟ وماذا تقصد بكلامك؟

رفع أحمد فوهة البندقية قليلًا، وصوّبها نحو حسن دون أن يرتعش صوته.

- أنا رجل كثير الشك، صحيح؟ فلماذا لا أشك بك؟ منذ تلك الليلة والصوت الذي ناداني بين الأشجار يقول لي: رمضان هو زائر الليل. ولقب القاتل بيننا اشتهر بـمهشّم الأعناق، وأنت وحدك من كان يكرّر لقب زائر الليل كما قاله ذلك الصوت. تصرّ وتعيد أن رمضان هو القاتل، مع أنني أنا من بدأ الشك به، لا أنت. ثم إن الوحيد الذي كان معي حين رأيت الخربشة على الجدار بالدم عند موت عبد المطلب هو أنت. خرجتُ أنا وتركتك بالداخل... فكيف نسيتك؟ لذلك، الاحتمال يقع عليك. قد تكون أنت مهشّم الأعناق.

ضحك حسن بصوت مرتفع، كأنه يريد أن يغطّي على شيء يتكسّر

في صدره.

- كل هذه ظنون. لا تثبت أنني الفاعل ولو بنسبة ضئيلة.

- يؤسفني أن أقول إن هناك ما يثبت.

ارتبك حسن وتلعثم، كأنه شعر بحقيقة تضرب المكان قبل أن تُقال.

- ت... توقّف عن اتهامي بالخيانة!

- تذكر ذلك الدليل الذي قُتل؟ مسكين... أليس كذلك؟

ابتلع حسن ريقه، وحاول أن يرسم ابتسامة لا تستقرّ.

- تتلاعب بي؟ تريد أن تلصق تهمة كاذبة بي!

ثبت أحمد نظره عليه ثم قال:

- كفاك تمثيلًا. أنت من تلاعب بنا وكأننا دمى في مسرحك. كان عندي شك كبير، لكن عندما تركتني بحجة المصحف... كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير. تبعتك لأكتشف أنك ذاهب إلى جهة العدو. ذاهب لتشي بنا وتوقعنا تحت مرمى نيرانهم.

- أنا لست...

- ابلع لسانك. سنحسم الأمر الآن. تقدّم أمامي للعودة إلى معسكرنا. هناك أكشفك أمام الجميع. هل تظن أنك لم تترك خيطًا؟ في يوم القبض على رمضان بسبب هجومه على الهادي، أخبرني العم الهادي أن شابًا طلب منه الذهاب إلى الكهف نفسه. وذلك الشاب... أنت. إن كنت مخطئًا، فعد معي حالًا ودع وجهك ينكشف أمام العم الهادي.

ساد صمت حادّ. كان الإرهاق ظاهرًا على جسديهما، لكن التوتر جعلهما أشدّ يقظة مما تسمح به الليلة الطويلة. وفي لحظة خاطفة، حاول حسن أن يباغت أحمد بطلقة، غير أن أحمد كان يترقّبها. انطلقت رصاصة أحمد أولًا، واستقرّت في ساق حسن.

سقط حسن وهو يصرخ، والدم يندفع من موضع الإصابة. تقدّم أحمد بخطوات حذرة، وصوته ثابت.

- كيف عرفت؟ ما الذي جعلك تتيقن أنني أنا مهشّم الأعناق؟

ظلّ أحمد يراقب يدي حسن ووجهه، ثم قال كأنه يقتطع الكلام من تعبٍ قديم.

- آثار الدم يا حسن... آثار الدم فضحتك. أول مرة حين شككت برمضان وبقيت أنت معي. وثاني مرة حين قُتل ذلك الفتى وترك وراءه أثرًا: "صديقك خائن". عندها استيقظت شكوكي حولك. وحين انسحبت بحجة المصحف، تبعتك لأرى إلى أين تذهب.

كان حسن يصرخ من الألم، ومع كل صرخة يحاول أن يلتقط أنفاسه كمن يغرق. أكمل أحمد بلهجة باردة لا تخلو من ارتجاف خفيف:

- اسمعني جيدًا. أصبت ساقك لا قلبك. لو أردت أن أجعل الرصاصة في صدرك لفعلت. لكني أحتاج لسانك الآن. أريدك أن تقول كل الحكاية. قصّ عليّ من أول رجل قُتل في الكهوف إلى هذه اللحظة، وأخبرني بالدافع الذي جعلك تخطط لكل هذا.

تنهد حسن ورفع عينيه إلى السماء، ثم فتح فمه بالحقيقة. كان

يتحدث ثواني، ثم يئن، ثم يعود يكمل.

- تذكر اليوم الذي خطفتَ فيه ذلك الجندي من بين رفاقه؟ قائد تلك الفرقة اسمه غالو. غالو قائد محنّك ومن العقول المدبرة في الجيش الإيطالي. أنت أهنته، وبسببك تمرغت سمعته في الوحل. الخبر كان صادمًا، وكثيرون انتظروا زلة مثل هذه ليوقعوا به. أقسم أمام رجاله أن عقاب الاختطاف لن ينال الفاعلين وحدهم، بل كامل جيش المقاومة. عندها تم استدعائي... أدخلت خيمة القائد، وأبلغني أنه لن يهاجم مواقعكم بهجمات استنزاف فقط، بل سيستخدمني -بما أنني واحد منكم- ليتلاعب بكم ويُربك صفوفكم.

- وأنت... منذ متى وأنت تخوننا؟

أغمض حسن عينيه مقاومًا الألم وقال:

- هذه الحرب أخذت مني كل أفراد أسرتي. وما بقي لي منها إلا أعزها: والدتي. كنا محاصرين في القرية، نعاني شحّ الموارد. لن أكذب... حملت حقدًا على المقاومة، وقلت في نفسي: لربما لو استسلموا من البداية لما حدث ما حدث. لكنني لم أعادِ أحدًا... حتى مرضت أمي. ويا أحمد، أمام أمي فليحترق العالم.

توقف لحظة، ثم تابع بصوت أثقل:

- ذات مساء ناداني ضابط من ضباطهم. لم يكن غالو، بل رجل آخر بارد الملامح. جلس أمامي وقال: سنوفر لوالدتك علاجها كاملًا إن أصبحت عيننا في هذه القرية، وسنطعمكم ونحسن معاملتكم. ثم هددني صراحة: لا أنتظر موافقتك... أنا واثق منها لأنني واثق أنك لا

تريد لوالدتك أن تموت.

- ولماذا تم اختيارك أنت دون غيرك؟

فتح حسن عينيه قليلًا، ثم أدار وجهه إلى التراب.

- لست الوحيد. كثيرون تم اختيارهم. كان اختيارهم دقيقًا... بين حين وآخر يقيمون أنشطة بدنية وألعابًا تحتاج ذكاء. ليس ترفيهًا كما يظن البعض. كانوا يفتشون عمّن يمكن استخدامه.

- أكمل.

- بعد اختياري بدأت أنقل لهم الأخبار... لكن نصف أخبار. لم أعطهم الحقائق كاملة، لم أرضَ أن أكون واشيًا كاملًا. لكن مع مرور الوقت... طُبع ذلك بداخلي. تجردت من المشاعر، وصرت أعمل لأجل المال. ثم رُسمت خطة لضمّي إلى المقاومة.

- وما هي؟

- انتشر خبر في قريتي عن شاب فرّ من حصار المستعمر بعد أن طعن أحد الحراس.

- وذلك الشاب هو...

- نعم. أنا. الخبر غزا الأرجاء كالنار في الهشيم. ثم تشردت بين الجبال حتى عثر عليّ راع يعمل مع المقاومة. تلك كانت اللحظة التي انتظرناها... أرشدني الراعي إلى قائدكم مفتاح، فاستقبلني وضمني إلى قواته.

قال أحمد وهو يضغط فكه.

- ثم بدأت رد الجميل. قاتلت معنا وأظهرت ولاءك حتى صرت عينًا لهم، وحين استدعاك غالو بدأت تضربنا من الداخل.

- بالضبط.

تردد حسن، ثم قال كأنه يتذكر سلّمًا صعد عليه ثم رماه.

- كنت أعتمد على حكاية "عمتي الغولة"... تلك العجوز التي يخشاها الكبار والصغار. أردت أن أمزّر فكرة وجودها حتى...

سكت حسن وابتسم. اشتعل الغضب في عيني أحمد ثم قال:

- حتى ماذا؟

ضحك حسن ضحكة قصيرة، ثم قال بصوت أهدأ مما ينبغي:

- حتى ظهرت أنت أمامي. وجودك كان فرصة لا تعوض. لم أعد أحتاج لخرافة عمتي. أنت كنت كافيًا. رجل يشك ويفكر. يلهث خلف خيط صغير ويظنه الحقيقة كلها. استخدمت عقلك... فبدل أن أقنع الرجال بخرافة، أقنعتك أنت بأن رمضان هو القاتل. وأنت بدورك أقنعتهم. كنت أنت المفتاح... واللسان الذي يتحدث نيابة عني.

هبط أحمد نحوه وأمسكه من عنقه، لكن قبضته لم تكن لتخنق بقدر ما كانت لتمنع حسن من الانزلاق إلى المزيد من التفاخر.

- تتحدث متفاخرًا عن تلاعبك بي؟

- كان فرج واثقًا أنك ستكشفني... قالها لي قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

انقبض قلب أحمد. بدا كأنه فقد الهواء لحظة. خرج السؤال من

فمه مبللًا بوجع لا يريد أن يراه أحد.

- كيف قتلت فرجًا؟ وعبد المطلب والبقية؟ كيف فعلت كل هذا؟ وحدك أم معك آخرون؟

حرّك حسن شفتيه بصعوبة، ثم قال بصوت خافت.

- تظنها القوة؟ لا يا أحمد. القوة للثيران... أما أنا فأستخدم التوقيت. ألم تلاحظ أنني كنت دائمًا شعلة من النشاط؟ أجلس قبيل الفجر أراقب المستيقظين. يكون البرد قد نخر عظامهم، والنعاس شل أطرافهم. أجعلهم يسترخون بكلمة طيبة. أقول لعبد المطلب: أشعلت نارًا في ذلك الكهف لتدفئته، اذهب ونم، سأحرس مكانك. أو أطلب من آخر شعلة نار لأنني رأيت شيئًا يلمع داخل الكهف. الحيلة لم تكن في المصارعة... بل في جعلهم يحنون رؤوسهم طواعية، أو يعطونني ظهورهم برضا. وفي لحظة يخرج زفير الراحة من صدورهم... أكون قد أطبقت على القصبة الهوائية. يختنق الرجل سريعًا إذا أُخذ وهو غافل.

- فرج... كيف قتلته؟

- صيد سهل، حاله كحال البقية. لم يقاومني. في غفلة أسقطته أرضًا، كان يتفوه بكلمات بائسة لا تنقذه. الوحيد الذي قاومني كان عبد المطلب... وكاد أن يترك فى جسدى كدمات فاضحة.

- ما قصدك؟

رفع حسن يده بصعوبة نحو باطن ثوبه، وأخرج كيسًا صغيرًا فيه حبوب. كانت أصابعه ترتجف وهو يعرضه كأنه يقدّم سرّه الأخير.

- هذه حبوب منومة. أسقطها في كوب الشاي ثم أقدمه للضحية، فيبدأ في الترنح. بعدها أخدعه ليدخل الكهف. عبد المطلب وحده انتبه لذلك، أو كاد. حين قدمت له الشاي تظاهر أنه شربه. طلبت منه أن يرتاح في أحد الكهوف، وكنت أظن أنه سيغفو. دخل الكهف وقد وضع الشك بي.

تنفس حسن بشدة، ثم تابع:

- ذهبت إليه جاهزًا لخنقه، لكنه كان مستعدًا. قاومني شر مقاومة، لكن فارق السن بيني وبينه كان عاملًا مهمًا. ارتفعت الجلبة وخشيت أن يسمعنا أحد. خنقته دون رحمة. حاول أن يكتب شيئًا بدمه على حجر... كانت الحروف تخرج مضطربة، وأذكر أن طرف ثوبه تمزق، وبقيت أليافه عالقة تحت يديه وهو يتشبث. شوّهت الكتابة وأسرعت منسحبًا لأغير ملابسي في الغابة وأغتسل من الدماء. ثم عدت لاحقًا لأمسح الأثر عندما شعرت أن الشك بدأ يدنو.

ضغط أحمد بيده على موضع جرح حسن، فصرخ حسن صرخة طويلة. رفع أحمد يده وتراجع خطوة، وصوته يخونه غضبًا وتعبًا:

- هذه المرة لن أتهور. ولو أنني أتمنى لحظة تشتت لأشرب من دمك وأقطّعك... لكن لا حكم لي عليك. القصاص يعلنه قائدنا بحضور كل من تركت فيهم أثرًا سيئًا.

ابتسم حسن ابتسامة باهتة، والدم يسيل من فمه:

- لا يهم. أريد للنهاية أن تحل. لقد استمتعت... عندما شككت في رمضان ورأيت نفسك كاشف الحقيقة. الرجل الوحيد الذي يفهم ما

لا يفهمه الآخرون. وكل ما كنت أفعله هو وضع أثر بسيط: همسة هنا، كتابة هناك... وأنت تكمل الطريق وحدك.

- أتظن أن ما حدث لعب؟ تجردت من إسلامك، وتجردت من إنسانيتك. قتلت رفاقنا بدم بارد، وتلاعبت بي وبزملائي، وتقاضيت مالًا نظير دمائنا. أي نوع من الوحوش أنت؟

كان حسن يتكلم بصعوبة، والدم يتقطر من شفته:

- لا تحزن... أنت المنتصر في النهاية. خطتي كانت مثالية.

حدّق أحمد فيه، ثم قال كمن يقتطع آخر صبره:

- لا أظنها بتلك المثالية. تصرفاتك أثارت شكوكي. ثم إنك أخطأت حين قلت إنك تعلمت الإيطالية وقت حصار قريتك. الاحتلال كان يرفض تعليمنا جملة وتفصيلًا، وكان التعليم محصورًا على الخونة وأبنائهم، وعلى بعض اليتامى الذين يغسلون عقولهم. وحاولوا تقليص تعليمنا في الكتاتيب والمدارس القرآنية قدر المستطاع.

هزّ حسن رأسه ببطء، كأنه يقرّ بالخسارة:

- رغم ذلك كان لكل هذه الأخطاء مهرب وحجة... لكن الدليل الذي كشفني لم يكن في الحسبان.

اتسعت عينا أحمد.

- ذلك الفتى... ما قصته؟

تقيأ حسن دمًا، وسكت قليلًا، ثم رد:

- ذلك الفتى أسير مسكين. ليس دليلًا ولا مرشدًا ولا خائنًا. هو

طُعم استخدمناه. الهدف كان تعزيز ثقتكم بي وإبعاد الشبهات، وتقريبي من القائد. خطة قتل الدليل كانت من تدبيري. كانت هناك فرقة من الجيش الإيطالي تنتظرنا قرب ذلك الموقع، المكان مراقب. والخطة أن نجعل الأسير يظن أنه يستطيع الهرب، فيركض إلى ذلك المنزل.

ابتلع حسن بصعوبة، ثم تابع وهو يلهث:

- دخلت أنا وجعلتك تظن أنني أريد قتله. التقيت به في الداخل وأخبرته أنني سأساعده على الهرب، وقلت له أن يخرج من الباب الخلفي... لكن ليحذر؛ لأن أحد الجنود ينتظره هناك. وكنت أعنيك أنت. وأعطيته مسدسًا. تخيلت أنك ستلحقه، فيلتفت إليك ليحاول قتلك، وأنا أكون جاهزًا لإيقافه. كان الهدف أن أنزع كل شكوكك. لكنني لم أضع في الحسبان أنه سيتهور كما فعل... خفت منك ومن تفكيرك. هنيئًا لك.

نظر أحمد إليه بعينين ذابلتين. كانت جفونه ثقيلة كأنها تحمل جبالًا من التعب. لم يذق طعم النوم، وجسده يرتعش من الإعياء والبرد، لكن عزيمته كانت أشد من صخور الجبل الأخضر.

انحنى أحمد نحو حسن، لا ليرأف به، بل ليحمل وزر الحقيقة. رفع جسد حسن الثقيل على كتفه، فأنّ العظم وصدر من أحمد صوت مكتوم. كان يحمل خائنًا... وكان الحمل أثقل على النفس من الجسد.

***

سار أحمد به خطوات مترنحة. كانت كل خطوة معركة بذاتها؛ الأنفاس تخرج من صدره كأنها شفرات، والعرق البارد يغطي وجهه. الطريق وعر، وقد سلك طريق العودة نحو المعسكر على أمل أن يلقى رفاقه قبل أن يخونه جسده. كان يعلم أن إكمال المسافة وحده شبه مستحيل، وأن الإنهاك يزحف عليه بلا رحمة.

كان حسن يتمتم بكلمات غير مفهومة من الألم، بينما ظل أحمد صامتًا. ازدحمت في رأسه صور الشهداء: فرج، وعبد المطلب، وغيرهما. قاوم التعب كمن يقاوم موجًا يريد ابتلاعه.

- تحمّل يا أحمد... تحمّل... بقي القليل لتظهر الحقيقة.

رددها في داخله ليطرد شبح الإغماء. وعند طلوع الشمس، وانعكاس ضوئها على عينيه، لمح ظلالًا كثيرة أمامه. خارت قواه، فسقط حسن من على كتفه، ثم لحقه أحمد مرميًا على الأرض من شدة التعب.

لم يكن السقوط نهاية، بل استراحة محارب أجبر عليها الجسد لا الروح.

فتح أحمد عينيه ببطء، فوجد نفسه محاطًا بوجوه مألوفة. كان القائد مفتاح يركع بجانبه، وعلى وجهه خليط من القلق والدهشة. طوّق الرفاق المكان، بينما ظل حسن ملقًى على الأرض يئن بصوت مخنوق، وقد تيبست الدماء على ساقه.

تحامل أحمد على نفسه. غرز أصابعه في التراب كأنه يستمد من

الأرض عزيمة، ثم دفع جسده المنهك للوقوف. ترنح قليلًا، فأسنده القائد من ذراعه. حاول أحمد أن يستقيم وحده؛ الحقيقة التي يحملها لم يكن يريد لها عكازًا.

تنفّس بعمق، وملأ صدره بهواء الجبل البارد. ثم أشار بسبابته المرتجفة نحو حسن وقال بصوت مبحوح لكنه مسموع:

- هذا الذي ترونه أمامكم ليس رفيق سلاح ولا ابن قضية... هذا هو مهشّم الأعناق. هذا هو الداء الذي نخر في عظامنا ونحن نيام.

سرت شهقة جماعية بين الرجال. تحولت النظرات من الشفقة إلى الصدمة. تابع أحمد وقد اشتد صوته، مستحضرًا ألم الفقد ووجوه من غابوا غدرًا:

- لقد خاننا. باع دماءنا للاحتلال الإيطالي. تلاعب بنا، وزرع الفتنة بيننا، وجعلنا نشك في أخينا رمضان. واختبأ خلف خرافة "عمتي الغولة" ليغطي على جرائمه. كان عينًا للعدو بيننا... وخنجرًا في ظهورنا.

ساد صمت ثقيل، ولم يعد يُسمع إلا أنين الريح وأنفاس الرجال. نظر أحمد في وجوههم، ثم قال بعبارة موجزة خرجت من حرقة قلبه لا من رغبة في الخطابة:

- عدونا الذي نراه أهون من عدو يلبس زينا ويأكل معنا ويصلي معنا وقلبه معلق بثمنٍ يدفعه المستعمر. الخيانة تقتل الصف قبل أن تقتل الرجال.

استدار نحو حسن، وتلا الآية بصوت ثابت رغم التعب:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم أضاف وهو يحدق في حسن:

- لقد جمع هذا الرجل صفات المنافقين التي حذرنا منها نبينا الكريم، فقد قال رسول الله ﷺ : «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ». وهذا الرجل قد خان الأمانة، وكذب الحديث، وغدر بالعهد، وفجر في الخصومة حين أراد قتلنا جميعًا.

تقدم القائد مفتاح خطوة، ونظر إلى حسن نظرة قاسية وسأله:

- أهذا صحيح؟

وجاء صوت الهادي من الخلف، محمّلًا بمرارة قديمة:

- نعم. هذا هو الذي أوقع بيني وبين رمضان، وصوّر لكم أن القاتل هو رفيقنا.

ابتسم حسن ابتسامة قصيرة، وأومأ بالإيجاب كأنه لا يبالي بما بعد الاعتراف.

التفت القائد إلى أحمد، ووضع يده الثقيلة على كتف الشاب المنهك وربت عليها بحنان الأب وفخر القائد:

- يا أحمد... كفيت ووفيت. كشفت الغمة وبرأت ساحة المظلوم. هذا الخائن قتل رفاقنا وحاول أن يسلمنا للعدو.

سحب مفتاح مسدسه ببطء، ثم مد مقبضه نحو أحمد:

- القصاص حق. ولن يقتص منه إلا من كشفه. خذ حق إخوتك بيدك.

تناول أحمد المسدس. لم يكن ثقل السلاح من وزنه، بل من ثقل اللحظة. لم يكن قاتلًا بطبعه؛ كان مجاهدًا يدافع عن أرض. لكنه أدرك أن تطهير الصف واجب لا يحتمل ترددًا.

نظر إلى حسن نظرة أخيرة؛ لم تكن فيها شهوة انتقام، بل حزن على نفسٍ ساقت صاحبها إلى هذا المصير.

إلى ديّان يوم الدين نمضي... وعند الله تجتمع الخصوم

دوى صوت الرصاصة في الفضاء. سقط الجسد، وسقطت معه آخر حيلة كانت تخنقهم في الليل. لثوانٍ لم يتحرك أحد. حتى الريح بدت كأنها تراجعت خطوة.

ثم تحرك أحمد مترنحًا نحو الأسرى المكبلين، ومن بينهم رمضان. سحب سكينه وقطع الحبال. وحين واجه رمضان، خرج صوته متصدعًا كأنه يعترف لنفسه قبل أن يعترف له:

- لا أعلم ماذا أقول. أنا الذي اتهمتك، وأنا الذي وقفت أمام الرجال أزعم أنني أحمل برهانًا... ولم يكن في يدي إلا ظن فاسد.

قال رمضان بصوت مبحوح، وفي نبرته جرح لم يلتئم:

- أتدري ما صنعت بي يا أحمد؟ لم تربطني بالحبل وحده... ربطتني بنظراتهم. كل من مر أمامي رآني متهمًا، قاتلًا محتملًا. وربما وصل

خبر ذلك إلى أهلي وإلى القرى.

رفع أحمد عينيه اللتين كانتا تلمعان بصدق تعب لا يتزين ثم قال:

- اعلم يا رفيقي أنني أعلن أمام الله والجميع أنني مستعد للتعويض بما أستطيع، وأنني لا أطلب نقاشًا يبرئني... بل أطلب طريقًا ينصفك.

تنفس رمضان، ونظر إلى الرجال حوله، ثم قال وقد لانت حدته قليلًا:

- اجتهادك لإظهار الحقيقة واضح، والندم على وجهك واضح. وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. لكن لي عندك ثلاث.

رفع رمضان يده وعدّ:

- الأول: أن تقف أمام الرجال كما وقفت من قبل، ولكن هذه المرة لتبرئ اسمي بصوت واضح، وتقول إنك ظلمتني وأن اتهامي كان باطلًا.

- والثاني: أن تجعل ما فعلته بي درسًا لا يغيب عن قلبك... فلا تتهم رجلًا بعد اليوم بظن، ولا تسلم رقبة أحد قبل أن تكون لك بينة كالشمس.

- والثالث: أن تجعل هذه الواقعة كفارة بينك وبين الله. كلما تذكرت ظلمي، تذكرت معه من ظلمهم العدو في المعتقلات والقرى، فزد لهم في جهادك ودعائك وصدقك.

توقف لحظة، ثم أردف بصوت أخفض، لكنه أثقل أثرًا:

- إن فعلت هذا... فقد عفوت عنك. لن أهينك كما أُهنت، لكنني لن أنسى. سأجعلها علامة تردعني أنا أيضًا عن ظلم أحد.

ترددت كلمات رمضان في صدر أحمد كأنها ماء على نار. تحركت شفتاه قبل أن يرفع عينيه إليه:

- ما وجدت في حياتي أثقل ولا أكرم من كلماتك. كنت أخاف أن أخرج من هذا اليوم وقد أغلقت بابك في وجهي... فإذا بك تفتح لي بابًا بيني وبين الله، قبل أن تفتحه بيني وبينك.

لم يتوقف الركب طويلًا؛ الوقت سيف، والاحتلال لا ينام. أصدر القائد أوامره بمواصلة المسير نحو معسكر الشيخ هارون، وتركوا جثة حسن حيث سقطت، بعد أن تأكدوا أنه لن يقوم بعدها. لم يحتج الأمر إلى كلمات كثيرة؛ كل رجل فهم قسوة ما جرى، وفهم أيضًا لماذا لا يجوز حمل الجسد معهم.

سار أحمد وسط رفاقه. لم يعد ذلك الشاب الذي يتعثر في ظنونه، ولا ذلك الذي يجرّ خلفه اتهامًا باطلًا. مالت رؤوس الرجال نحوه احترامًا، لا لحدة سلاحه، بل لثمن الحقيقة الذي دفعه.

اقترب رمضان منه، ووضع يده في يده. كانت المصافحة صامتة، لكنها أبلغ من ألف اعتذار.

بعد مسيرة ساعات، بدأت تلوح في الأفق نيران خافتة، وتناهى إلى مسامعهم صهيل خيل. لقد وصلوا.

كان الشيخ هارون، الرجل الوقور ذو اللحية البيضاء، يقف على

رأس رجاله متجهزًا للقادم من المجهول. وما إن رأى طلائع القائد مفتاح حتى هدأ باله. تقدم مفتاح وقص عليه ما حدث بإيجاز، وأخبره أن هذا الانسحاب إجراء احترازي للنجاة من فخ محتمل.

رحب بهم الشيخ:

- الحمد لله على سلامتكم يا رجال، الحمد لله الذي نجاكم من كيد الكائدين.

جلس الرجال حول نار كبيرة أعدت لاستقبالهم. ورغم شح الموارد والحصار الخانق، أبى الشيخ هارون إلا أن يكرم ضيوفه. أُخرجت تمرات مخزونة، ونُحرت شاة كانت مدخرة للأيام العجاف. لم تكن الوليمة باذخة في طعامها، لكنها كانت باذخة في معناها.

دفئ المكان، لا بسبب النار وحدها، بل بسبب حرارة اللقاء، وارتفعت ضحكات قليلة لتكسر صمت الجبل، وتناسى الرجال للحظات أصوات المدافع وأزيز الطائرات.

جلس أحمد بعيدًا قليلًا، يتكئ على صخرة وفي يده كوب شاي ساخن. كان جسده يصرخ طلبًا للراحة، لكن عقله بدا صافيًا لأول مرة منذ أسابيع. رفع بصره إلى النجوم التي بدأت تتلألأ فوق قمم الجبل الأخضر، وتمتم بدعاء قصير.

اقترب القائد مفتاح والشيخ هارون وجلسا بجواره. قال الشيخ هارون مبتسمًا:

- سمعت بما صنعت يا بني. الجبل الأخضر لا ينسى أبناءه. اليوم طويت صفحة سوداء... وغدًا نفتح صفحة أخرى.

نظر أحمد إلى القائدين، ثم إلى الرجال المجتمعين حول قصاع الطعام. كانت الثقة تعود لتربط القلوب من جديد، لكنها عودة تعرف ثمنها.

قال أحمد بصوت هادئ، كأنه يزن كل كلمة حتى لا تخرج منه غرورًا مرة أخرى:

- نعم يا شيخنا... الأرض لا تموت ما دام فيها من يصبر ويصدق. وما دام فينا من يتعلم ألا يجعل الشك سيفًا على رقاب إخوته.

أغمض عينيه لحظة، وقد أحس بطعم نصر صغير في حرب طويلة، وعرف أن فجر الغد مهما كان الليل حالكًا لا بد أن يشرق على وطن حر.

***

ما الذي حدث يا عمر المختار؟

مرت الشهور والمقامون صامدون رغم القتل والتشريد، تتقلص أعداد فيلق المقاومة مع زيادة التضييق وانعدام الإمداد، وتغدو الجبال أضيق من أن تحتمل هذا الثقل الهائل من المطاردة والجوع، أخليت القرى وشرد الناس لتشهد المعتقلات جرائمًا بشعة بين عامي 1930 و1931.

المعتقلات كانت عديدة ولعل أشهرها والذي ظل كالجمر على اللسان معتقل العقيلة، حيث هُناك لقيت فيه عائلة (أحمد) بالكامل حتفها دون أن يدري، فتلك الفترة أصبح التواصل بين المجاهدين وأسرهم شبه معدوم، فلا رسول يصل ولا رسالة تعبر، أقيم معتقل العقيلة على تخوم الصحراء كأنما اختير عمدًا ليكون بعيدًا عن الأعين، قريبًا من الموت، المخيم أشبه بمدينة من خرقٍ بالية، آلاف الخيام المهترئة تنتصب على رمال ملتهبة، لا تقي حرًا ولا تمنع بردًا.

هناك حُشر عشرات الآلاف من أهل برقة، شيوخ أفنتهم السنين ونساءً فقدنَ أزواجهن في ساحات الجهاد، وأطفال لم يعرفوا من الدنيا إلا وهج الشمس وبكاء الليل، ولم يكن الغرض من هذا الحشد سوى كسر شوكة عمر المختار ورفاقه الذين رفضوا الاستسلام.

في العقيلة وباقي المعتقلات مات الناس جوعًا ومرضًا كما ماتوا قهرًا، وكان المرض يحصد الأرواح كل يوم كأنه موسم حصاد لا ينتهي، كان الأطباء قلة، وكان على كل جمع من الألوف طبيب واحد، وكان وجوده كعدمه.

بين معتقل العقيلة ومعتقل سلوق والمقرون والبريقة والأبيار وغيرها كل يوم ينتقل إلى رحمة الله مئات من المعتقلين، بينما يحاول المجاهدون بإمكانياتهم البسيطة صد العدوان، ينتقلون من معسكر لآخر ومن جبل لغيره، وقد شارف عام 1931 على الانتهاء وأحمد ومن معه من صغار السن أنهكوا، فكيف بـرمز المقاومة وأسد الصحراء الشيخ المسن عمر المختار!

وفي تلك الأثناء جرت معركة حامية الوطيس بين المحتل والمقاومة، قُتل جميع المجاهدين إلا واحدًا، أصابت رصاصة حصانه فاختل توازنه وسقط، سقط الحصان وارتفع غبار كثيف كستارٍ مُفاجئ لينتفض ذلك الرجل شامخًا ينظر إلى أعدائه، شيخ صلب الملامح نقي السريرة ثابت الإيمان، حاصروه ببنادقهم، وفي ذلك الطوق جاء الصوت الذي يشقّ القلب قبل الأذن؛ صوتٌ خائن خسيس:

- إنه عمر، إنه عمر

في ذلك اليـوم 11 سبتمبر 1931 عـم البؤس الأرجاء بإذاعة خـبر القبض على أسد الصحراء، وزاد البؤس بؤسًا عند فجر 16 سبتمبر حيث اجتمع حشود من الناس في مدينة سلوق ليشهدوا تنفيذ حُكم الإعدام على عُمر المختار بعد أن أقيمت محكمة لا عدل فيها، عمت الفوضى المكان إلا أن فوهات البنادق والمشانق الجاهزة أسكتت الأصوات القريبة، بينما عند الجبل الأخضر تفككت القوات وذُمرت المعنويات برحيل رمز الجهاد، ومع رحيل المُختار علت همة المُستعمر في دك كل نقاط المقاومة وقطف رؤوسهم في معارك كلها

خاسرة، لكن ما لم يفهمه المحتل أن الإعدام قد يقتل الرجل، ولكن أبدًا لا يقتل ما زرعه في النفوس.

العجز عن الثأر مؤلم، قاد أحمد معركة خاسرة فور سماعه خبر استشهاد الشيخ، لم ينتظر اكتمال خطة ولا وصول مدد ولا حتى اجتماع كلمة، جمع الثلة الباقية، وجوه شاحبة، عيون حمراء من السهر، وأكتاف تحمل بنادق أقل من أن تُقارع دولة لكنها كافية لتقول: لا.

اليوم يوم الملحمة، لشيخ الشهداء وأسرنا، هذه أرضنا أرض عز لن تخضع وعلى درب ذلك الشيخ نسير.

لم يكن الهدف نصرًا عسكريًا بقدر ما كان إثبات حقيقة تقول: إن موت الشيخ لا يعني موت الفكرة، في وضح النهار تقدموا لم ينتظروا الليل فلهيب الثأر يحرقهم، هدفهم غير محدد، فلم يأبهوا قوة متحركة أو قافلة تموين أو غيرهم، وحين بدأ الاشتباك كان الرصاص كالمطر كثيفًا، بلا رحمة، وبتيسير من الله عز وجل كانت البداية موفقة وجنود المحتل يتساقطون من رصاصات الغضب.

كان على أحمد ألا يبتسم، نسي أن النهايات السعيدة اختفت، وعودتها تحتاج إلى أعوام طويلة، سمع ذلك الصوت الذي لا يخطئه أحد، خرير محركٍ فى السماء.

رفع المقاتلون رؤوسهم فمرت الطائرة فوقهم، لا تقاتلهم بالرصاص، بل بشيءٍ شديد البرودة، سقطت أسطوانات صغيرة ثم ارتفع من الأرض ضباب أصفر ثقيل، غازٌ مسموم يتسلل في الصدر قبل أن تراه العين.

في اللحظة الأولى ظنوه دخانًا، ثم بدأ السعال يقطع الحناجر واشتعلت العيون وانكمشت الصدور كأن يد حسن عادت لتعصر أعناقهم، حاول بعضهم الهرب إلى أعلى إلى الهواء النقي لكن الضباب كان أسبق، يزحف بلا صوت ويلتف حول الأرجل ويصعد ليحتل الأجساد.

شد أحمد وهو يترنح بندقيته إلى صدره كمن يشد وصيةً أخيرة، سقط على ركبته وبصوت مكسورٍ سعل وقال:

- بلّغوا الناس أنا متنا واقفين، بلغوهم أن بموتنا تـحيا الـفكرة

هدأت البنادق واحدة بعد واحدة، رمضان، العم الهادي، والشيخ هارون، كلهم سقطوا حين انقشع شيء من الضباب، وعندها لم يبق إلا صمت ثقيل وأرض تبكي عليهم، مات الرجال وفر من فر ليحكي بطولة رجال اختلطت دماؤهم وعظامهم بذلك الجبل الأشم.

أما الجبل الأخضر فبقي يردد لمن يمر به:

قد يُقتل الجسد لكن الفكرة إذا سكنت القلوب لا تموت، وأصحاب الحق أبدًا لن يهزموا.

وكما قـال شيخ الشهداء عمر المختار:

سيكون عليكم أن تحاربوا الجيل القادم والأجيال التي تليه.

***

عمتي الغولة

أصل الحكاية

في آخر النهار حين تغيب الشمس خلف الكثبان أو تتوارى وراء قمم الجبال الشاهقة في شمال إفريقيا، لا يحل الظلام وحده، بل تحل معه الحكايات، تلك الحكايات التي لم تكن مجرد أسمارٍ لقتل الوقت، بل كانت سياجًا من الرعب يُبنى حول القرى والخيام، وسلاحًا نفسيًا توارثته الجدات لترويض الصغار وردع الكبار.

وفي قلب هذا الظلام، تتربع الغولة ملكة متوجة على عرش الكوابيس، كائن خُفر في الذاكرة الجمعية من حدود مصر الشرقية، وصولًا إلى جبال الأطلس في المغرب الأقصى، تتغير الأسماء واللكنات لكن تفاصيل الغولة واحدة: أنثى الغول، قبيحة الملامح، آكلةُ لحوم بشرية.

في مصر، يعرفونها بـ "أمنا الغولة"، اللقب نفسه يحمل تناقضًا مرعبًا؛ فهي "الأم" في المسمى والوحش في الفعل، في الحكايات الشعبية المصرية تظهر الغولة غالبًا في هيئة امرأة قد تكون جميلة لتغوي الرجال أو عجوزًا قبيحة تخطف الأطفال الذين لا ينامون باكرًا، هي تلك التي تطحن عظام ضحاياها عندما تنفرد بهم، الارتباط المصري بالغولة وثيق الصلة بالأراضي الزراعية وتخوم الصحراء، فكانت الغولة حارسة الحدود غير المرئية التي تمنع الفلاح من الابتعاد عن حقله.

في المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، والمغرب) الأمر يزداد

عمقًا وتعقيدًا، هنا لا تكتفي الغولة بأن تكون رعبًا عربيًا قديمًا، بل تجد لها حتى أسماءً أمازيغية موازية فتُعرف بـ "ترييل" وهي ساحرة آكلة للحلوم، أو "تامزا" والتي يصفونها بأنها امرأة ضخمة الجثة ذات شعر أشعث وأظافر طويلة حادة تخترق الأجساد.

وللغولة أخوات في الجانب الأسطوري، ربما أخذت شهرة أكبر منها في مصر والمغرب، ففي مصر "الـنداهة" هي الأنثى الأكثر إرعابًا، تلك التي تنادي بأسماء ضحاياها بصوت عذب لتجذبهم، وهي حورية تسكن الأنهار والترع تفتنهم بجمالها المؤقت، وعندما تلقي بيديها على ضحيتها تكشف عن ملامحها البشعة وتفتك بهم، وليست بعيدة عنها في التفاصيل "عيشة القنديشة" في المغرب، تظهر عند الأماكن المهجورة في هيئة فاتنة توقظ رغبة الرجال ثم تقودهم إلى هلاكهم، ويقال: إن لها علامةً تخونها مهما حسُن وجهها وهي أقدام ماعز.

هكذا تتشابه الأساطير لأن الخوف واحد، حتى لو تغيرت الأسماء والملامح، الناس في كل مكان كانوا يحتاجون حكاية تفسر لهم خطر الليل، وخطر البُعد عن البيت، وخطر السير وحدك، فصارت الغولة في الجبل والغابة لتخيف الطفل من الضياع، وصارت النداهة في النهر والترع لتخيف الرجل من تتبع الصوت والاقتراب من الماء وحده، وصارت "عيشة القنديشة" عند الأماكن المهجورة لتخيفه من فتنة قد تقوده للهلاك.

وفي ليبيا "عـمتي الـغولة" حكايتها غامضة، بل لا تشير إلى حكاية واحدة إنما إلى سلالةٍ من الحكايات تتناسل، كل قرية لها نسختها، وكل جدة تضع في فمها نبرةً تخصها؛ لذلك يبدو أصلها غامضًا، لا لأن

الناس نسوا، بل لأنهم حفظوا أكثر من أصل في آنٍ واحد.

وترتبط معظم حكايات عمتي الغولة في ليبيا بمقطوعة يعرفها الصغير والكبير:

عمتي الـغولة فيش تديري ** قاعدة نغسل في شخشيري

حيث يقال إن ضحية الـغولة بعد أن قامت باصطياده ووضعته في غرفة مغلقة سمع ضجة منها خارج الغرفة فسألها: (عمتي الغولة فيش تديري؟) أي عمتي الغولة ماذا تفعلين؟ لتجيبه هي باستهزاء (قاعدة نغسل فى شخشيرى) أى جالسة أغسل جواربى، بينما فى الحقيقة هي تغسل السكاكين وتلمعها تجهيزًا لتقطيع ضحيتها وأكله.

وهنا أردت مزاحمة الجدات بـقصة "عمتي الغولة" بـفكرتي وأسلـوبي لأترك للأجيـال الـقادمة حكاية جديدة تضاف إلى مئات الحكايات التي تعبر عن هذه الأسطورة المرعبة:

في إحدى الـقرى الليبية كانت تعيش سيدة لم يكن لها من اسمها نصيب "رابحة"، اجتمعت عليها ظروف الـدنيا، مات والدها وهي ما تزال غضة السن، ثم كبر أخواها راكضين خلف الحياة وتزوجا، وتركاها وراءهما دون أن يسألا ظنًا منهما أن تنازلها عن المنزل لها يشفع لهما، لم يُطرق باب بيتها قط، لا خاطب ولا قريب ولا حتى سائل غريب، فملامحها قاسيةٌ على العين، وصوتها خشن يوقظ الخوف فيمن لا يعرفها، وجسدُها ثقيلٌ أنهكته الأيام، وكانت فوق ذلك بسيطة العقل تفهم الأمور ببطء وتأخر، وازداد الأمر سوءًا بعد كبرها في السن، فأصبحت مُعرضة للسخرية من شكان الحي، سيدة بائسة مهترئة الملبس ينفر منها الناس، وبين همس الجارات

وضحكات الصبية تردد لقب لها: "عمتي الغولة".

وذات ليلة اتفق مجموعةٌ من فتية الجيران على عبث جديد، اشتروا صندوقا صغيرًا جميلًا ووضعوا فيه جوارب صوفية رخيصة، ثم صعدوا سور حديقة منزل رابحة ورموا الصندوق في منتصف حديقة المنزل، ثم قال أحدهم وهو يضحك:

- فليطرق أحدكم الباب ودعونا ننتظر ردة فعلها.

طرق أحد الفتية باب الحديقة لتفتح رابحة باب منزلها الذي يتوسط الحديقة وتجد الصندوق، هبطت لتمسكه وراحت تفتحه ببطء شديد، وحين ظهرت الجوارب لم تر رخصها ولا سخفها، بل ارتعش وجهها وفرحت فرحًا طفوليًا وقالت لنفسها بصوتٍ مسموع:

- هل يعقل بعد كبر سني هذا أن تكون هذه الهدية من معجب سري؟

تخيلت شخصًا رأى طيبتها فحنّ عليها وخاف من كلام الناس فأرسل الهدية في صمت، ضمت الجوارب إلى صدرها ثم دخلت منزلها سعيدة ليتعجب الفتية من تصرفها.

أصبحت كل يوم تغسل الجوارب لتجعلها نظيفة وجديدة، وكان الفتية يزيدون السخرية منها فكانوا كل عصر يقفزون فوق سور منزلها ويرونها وهي تغسل الجوارب فيسألونها:

- (عمتي الغولة فيش تديري؟).

وتجيب هي:

- (قاعدة نغسل في شخشيري)

أحدهم لم يطق طول هذه المزحة، فكان ألينهم قلبًا وقد رأى فرحتها من بعيد فخنقته غصة، وفي المساء اقترب من بيتها مترددًا وطرق الباب طرقا خفيفًا، تلعثم الفتى بعدما فتحت الباب وقال لها بشكل مباشر قبل أن يهرب:

- يا عمة الهدية منا، لا أعلم ما سبب فرحتك هذه، أردناه مقلبًا بسيطًا لم نتوقع عواقبه هذه، توقعنا أنك ستغضبين عندما ترين أن في الصندوق مجرد جوارب، أعلم أن ما فعلناه عيب.

سقطت الكلمة على قلبها كحجر في ماء ساكن، اتسعت عيناها أولًا ثم انطفأ بريقهما دفعة واحدة، حاولت أن تبتسم لتخفي الإهانة فلم تسعفها ملامحها، وأغلقت الباب ببطء من غير صراخ ولا لوم، وتردد في داخلها:

- هذا متوقع، فمن يهتم لأمر غولة مثلي.

مرت أيام لتنهشها الكآبة بعد أن تيقنت أنه من المستحيل أن يطرق بابها أحد، مرضت ولم تظهر ذلك لأحد، لم تدرك أنها كانت تموت ببطء، أو ربما كانت تدرك وأرادت الفرار من قسوة البشر.

ثم جاء الصباح الذي لم تفتح فيه الباب.

انتقلت رابحة إلى رحمة الله، لكن ما حدث بعدها كان مجرد البداية.

فمن بعدها كثرت حالات الموت بقريتها، وجميع الموتى لا أثر لقاتلهم غير أثر خنق وملامح فزع تدل على أهوال رأوها قبل

موتهم.

وكان بين أهل القرية رجل نجا من الموت بأعجوبة، وظل بعد ذلك يحدث الناس بما رآه، قال: إنه عند عودته لمنزله لمحت عيناه هيئة عجوزٍ ترتدي الزي الليبي التقليدي الأبيض الذي لا تخرج منه إلا العين، وكان تلك العين مريبة حمراء تلمع في الظلام، نادته باسمه والصوت لم يكن غريبًا، فتقدم قليلا في عجب لينزلق الرداء عن وجهها، كانت تشبه رابحة، لكنها أشد بشاعةً وعفانة، وجه منتفخ وجلد شاحب وشعر ممتلئ بالغبار، وعينان بعيدتان كل البعد عن أعين البشر، قال إنه لمحها تميل نحوه، شعر بأن الأمر ليس طبيعي، فأراد الحركة إلا أن سرعتها العجيبة جعلت عنقه بين يديها، إلا أن في تلك اللحظة كانت مجموعة شباب قد مروا فمباشرة اختفت دون أثر.

وبعد سلسلة جرائم في تلك القرية اختفت الغولة أو اختفى أثرها وعم الهدوء المكان، إلا أنه بين القرى والمدن في ليبيا وما جاورها، وجد أثر لنفس الجرائم، عجوز مخيفة وخنق حتى الموت، يقال إنها تذهب إلى الأماكن التي يكثر فيها الحقد والكذب والصفات السيئة، حيث تتواطأ القلوب القاسية على الظلم.

***